

بيت مكتبة الأخضر

من
تاريخ



مراجعة

ترجمة

سعد الحسنى

أمل الجبوري



المشروع القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

حيث تلتقى الأنهار

رواية

هربرت ميسن

مراجعة
سعد الحسنى

ترجمة
أمل الجبورى



٢٠٠٠

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Where The Rivers Meet
By Herbert Mason

تصميم الغلاف / هشام نوار
الصورة الفوتوغرافية على الغلاف للشاعر بدر شاكر السياب

تمهيد

عرفت الشاعرة أمل الجبوري مستجذره حتى النخاع في بغدادها وعراقها الذي أحبه ، لكنى لم أعرفها مغتربة تبعث لى أوراقها المتناثرة لأجل المراجع .
لم أعرف أن الغربية قد صقلت مواهبها للدرجة مشيرة أراحت الستار عن قدرة فائقة في الترجمة أضفت ، عليها قريحتها الشعرية فجاءت كلماتها المترجمة هادئة ومعبرة وأنيقة لم تبخل بكل مطواعينها على لغة الكاتب الكبير هربرت ميسن .

إنى لست بصدد تقويم ترجمة رواية (حيث تلتقى الأنهار) ، لكنها كلمة حق أريد أن أقولها حين أشعر بالاعتزاز لعمل سيضيف مفردة شاعرية لعمل روائي هو خلاصة تجربة عاشها المؤلف هربرت ميسن ، وتقمصته وعاشته الشاعرة بكل حذافيرها ، حتى لكأنى حين قرأت النص العبرى انصاع وراء مشاعر الاستطراد فى العبرية التى أعجبنى سبكها وحلاوة ترتيبها وحداقة التخلص من إرباكات نقل النص الإنكليزى إليها . وهكذا أقول أن هذا الجهد الرائع للرواية هى إضافة أخرى للروائى الأمريكى الذى أرقه (موت الحلاج) فآثر إلا أن يرحل مرة أخرى فى الشرق الذى أحبه رغم اختلاف مناخه مع مناخ الكتاب النفسى . وكان مرشدنا فى ذلك لغة أمل الجبوري ، إذ ليس أفضل من أدبية كامل يمكن أن تنقل الشاعر بصدق الإحساس المرفف ونقاء الصورة التى توظفها بموسيقى سفرها الذى لم ولن يغادرها لأنها مسكونة به .

سعد الحسنى

عمل رائع حقاً .

كلية الآداب جامعة بغداد

السياب فى عيون أمريكية

يكاد يكون هذا العمل جزءاً من سيرة ذاتية للكاتب الأمريكى هيربرت ميسن اختار مفتاحها الأول رحلته إلى العالم العربى ، حيث لم يكن هو الكاتب الأول الذى عرف العرب من خلال المغرب بل سبقة إلى ذلك بول بولز وجماعة (Beat Generation) والتي كان أبرز كتابها كرواك وألن غينسبرغ ولورنس وغيرهم من الذين اشتهروا برفضهن القيم السائدة آنذاك فى المجتمع الأمريكى ، وراحوا يبحثون عن خلاصهم ، فكانت طنجة المغرب هى اللجنة التى افتقدوها فى بلادهم .

إلا أن ميسن هو الاستثناء الوحيد من الكتاب الأمريكين الذى تعرف فى خلال مراكش على أناسها من العرب والبربر ، وكون رؤيته الصوفية من خلال الفترة التى أمضاها هناك ، وهو يختلف عن وليام بوروز صاحب رواية «الغذاء العارى» وجماعته الذين كونوا رؤاهم من خلال «تشتيت الحواس» والملذات الحسية التى عاشوها هناك والتى كانت هى «عين المدينة» التى أخطأوا فى رؤيتهم لها كما يقول الروائى الطاهر بنجلون ، ويضيف «إن طنجة كانت تمنحهم الحشيش ووسائل الهروب بعيداً عن الواقع ، سرعان ما انتبهوا إلى أن هذا المكان لم يكن غير وهم فى مجموعة أحلامهم السهلة ، وهو ليس حتى ذكرى بالنسبة لهم ، كان مجرد اسم يرن جيداً ،

غير أن هذا الاسم كان خطأ والدليل على ذلك أن طنجة لا توجد فى
نصوصهم .

لكن ميسن الذى استبدل طنجة بمراكش جعلنا من خلال السرد المباشر
والواضح بجمله ، حيث ابتعد عن ديكور البلاغة اللغوية التى تجهض حبكة
النص ، كذلك لغته الشعرية التى لم تُغادر نثره وبقيت قائمة على امتداد
الفصول الأربعة تُطرز جسد الرواية ، فهو يصف جمالية معمار المدينة
وكيفية تنارع الألوان فيما بينها وتشابكها بشكل بانورامى متناسق إلى الحد
الذى كان الكاتب وكأنه يرسم لوحة فنية ، كل لون تناعم مع الحالة النفسية
التي كانت قد مرت بها ذاته المُعَذِّبَة . كانت المدينة تتمر أى له من خلال
الناس وانفعالاتهم :

(ساحر الأفاعى ، الدليل حسن ، حبه البرىء لثمر ، سطوة صاحب
البلدة السيد محمود جيريوف) وكل واحد من هؤلاء شكل خلاصاً لميسن
إلا أن الخلاص الأهم ، كان تلك العزلة التى وفرتها إصابته البليغة فى
مراكش والتى كادت أن تقضى على حياته لتمنحه بعد ذلك فرصة النسيان
والقفز على أحداث مسرح الألم الذى تركه خلفه عندما غادر أمريكا .

إن الاكتشاف والاستغراق عبر الكلمات كان بمثابة «حشيشته الخاصة»
أما اللغة العربية التى طالب بتعلمها فى الكتاتيب ، فقد أصبحت خليلته
اللامرئية . والمجهول كان شهوته التى يغوص فيها كل ليلة ويموت من
أجل أن لا يصلها دفعة واحدة ، ويقول : «انتهيت» .

سحر الشرق

لقد تآقت نفس ميسن إلى الشرق الذى تأمله بحس من يريد أن

يكشف خفايا الأصوات .

فقد سحرته العربية التي عرفها مع الصبية وهو يردد معهم آيات القرآن دون أن يعي في أحيان كثيرة معنى ما يقول ، لكنه كان يهيم كمتصوف أذابه الوجد في بيان الإعجاز والسحر الذي يحمله جرس الكلمة نفسه .

كانت تجربة مثيرة وغامضة استمر تأثيرها في دواخله حتى بات مأسوراً بهذه اللغة في أعمال التي كان الشرق أحد أهم محاورها .

إن إعادته صياغة «ملحمة كلكامش» شعراً أبقى شخوص الملحمة حية في ضميره ، كذلك مفهوم الصداقة التي يتحول فيها الصديق إلى مرشد روحى دائم البحث عن الأزل وهذا ما تجسد في لقاء ميسن بالسياب الذي مائل علاقة كلكامش بأنكيدو .

ففى الفصول الأولى من هذا العمل فرى الشيخ الذى التقاه الكاتب عندما كان صغيراً يغامر بالإبحار وحيداً فى قاربه رغبة فى الاكتشاف ، كذلك زوجته السيدة «بولاند» هما نفس الشخصين فى العمود السادس (٢٥٨) من الملحمة . . الشيخ أوتنابشتم وامراته التى تقول لزوجها «لقد أتعب كلكامش نفسه وأضناها فى الوصول إلينا ، فماذا عساك تعطيه عائداً إلى بلاده» .

فكانت هدية كلكامش بنّية الخلود التي شغلته عن التفكير بمخاطر العودة . أما السيد بولاند فقد صنع نايًا من القصب ليكون لحنه ونغماته الرفيق فى العودة إلى المنزل الذى ابتعد عنه ميسن كما لم يفعل ذلك من قبل .

«البنّية كانت معادل الخلود ، والناى هو الوجه الآخر للأنين الذى يبقى بعد ما يفنى الوجود» .

الجزء الأول

1

كان وجودى فى فرنسا هو المفتاح الأول لمعرفتى بالعالم العربى ، حيث الوقت سابق لأوانه ، وفى مرحلة كنت قد أمضيت سنوات قليلة من جهلى فى تهية الأشياء لتلك الأنساق التى امتزجت بالأعمال المؤقتة والمعرفة التى جاوزت أطرها التقليدية فى ذاك الزمن

لم يكن لدى بيت خاص بى ولو أن باريس كانت شبيهة بالوطن .
أما المكان الذى كان ذا مغزى يتعلق بمقدمتى ، وادنى معرفة بالعالم العربى فهو المطعم الجزائرى المسمى " أحمد " الذى يقع خلف المنزل فى حى سان جيرمان .

كل فرد فى هذا المطعم كان يجلس إلى واحدة أو اثنين من الطاولات ، الواحده قبالة الأخرى ، تبعثر عليها الأطباق التى علق بها ماتبقى من الطعام وهو فى الغالب كان للتلاميذ البؤساء القادمين من شمال أفريقيا .
هناك حيث كنت أتناول عشائى ، حصلت على وجبة زهيدة الثمن مع عصير التفاح بما يقارب (٥٠) من الفرنكات القديمة أى ما يعادل (٦٥ ستاً) وعندما كنت أتحدث مع الأصدقاء الغرباء الموجودين فى المطعم .
طرات لى فكرة الذهاب إلى المغرب حيث كان يتعذر على السياح الذهاب

إلى الجزائر بسبب الحرب . وهكذا بدأت حياتي منذ تلك اللحظة كما كنت أريد .

كانت رحلتي الأولى إلى العالم العربي شيئاً خرافياً امتد عبر السنين وكل ما أتذكره الآن ، أن هذه الرحلة كانت طويلة وشاقة ، صار إحساسي بالزمن متناثراً على نحوٍ متزايد دون تقسيمات اعتباطية .

أتذكر الآن سفري بالقطارات وركوبي لعربات رخيصة الكلفة لأنني مجبر على إدخار المال أثناء مروري بفرنسا وأسبانيا ، حيثُ أسافر ساعات طوال دون أن أعرف أين أنا الآن ، حتى أنني غير متأكد إلى أين ستكون وجهتي وكان قد تعطل الباص الذي أخذته بين مدينة طولوس وكاكاسون مما اضطرني للمشي مسافة لا تقل عن (١٠ - ١٢) كم حاملاً حقيبات خفيفة احتوت على بعض الملابس ومستلزمات الحلاقة وكتابين أو ثلاثة ومجموعة أوراق للكتابة ، ومن ثم ركبت مع رجل كان يسافر مع زوجته وأطفالهما الثلاثة في سيارة شوفرليت إلى برشلونه ، فأمضيت الليلة في فندق متواضع يضج بالعاهرات وزبائنهن الذين كانوا يدخلون ويخرجون باضطراب طوال الليل .

وفي اليوم التالي سرتُ لمسافة طويلة مستأنفاً سفري في سلسلة من القطارات والباصات ، مررت بأكشاك الملابس والفواكه التي كانت موجودة على امتداد الطريق ، أفرغت محتويات الحقيبة إلى أخرى حملتها معي على ظهري واشتريت زوجاً من السراويل الزرقاء القطنية مع قميصٍ وقليلٍ من الخبز والبرتقال بقليل من النقود تاركاً حقيبتَي ومحتوياتها (كي يمكنني التصرف بها جزئياً فيما بعد) ، ثم تابعت السير وقرص الشمس كان يغطس حتى منتصفه باتجاه الأفق ثم أكملت رحلتي إلى جبل طارق في

سلسلة من الشاحنات ، في واحدة منها ، لم أستطع التحدث ، حتى اني لم أفهم في الوقت نفسه ماكان يدور مع سائقها الذي كان يماثل عمري أي في الرابعة والعشرين مرتدياً ملابس شبه عسكرية خضراء غريبة وبالية حاملاً مسدساً في حزامه ، بعد ذلك مررت على امتداد الساحل الأسباني بمجاميع من الجنود يتحلقون على جوانب التلال وهم عاطلون رغم السلاح الذي كانوا مدججين به ، في جبل طارق كنت أشعر وكأن البحر ينفجر ليندفع نحوى برياحه الطاهرة التي تبعث الحياة ، ثم وقفت لأتفحص حالتي ووضعى الاقتصادى وماضى ، بعدها شخصت ببصرى نحو أفريقيا والساحل الآخر حيث اليخوت المبحرة والقوارب الشراعية وشباك صيد الأسماك الكبيرة والسفن البحرية الضخمة ومراكب قطر السفن التي كانت تغلق قناة العبور .

شاهدتُ العرب للمرة الأولى بعباءاتهم الطويلة وطرايشهم وصنادلهم (أحذية خفيفة) والنساء المحجبات اللواتى لم يسمحن للغريب إلا برؤية أعينهن وكفوفهن فقط ، حتى هذه اللحظة كان التنبؤ بما سيحدث لاحقاً شيئاً مغيباً ، فى طنجه حدث ما لم أتوقعه مباشرة بعد دخولى دائرة الكمارك المغربي ، سؤلتُ بالإنكليزية والعربية والفرنسية عن سبب وجودى هنا ثم وضحت لهم الأمر بأنى سائح لا أكثر وفجأة أخذ ضباط الكمارك حقيبة الظهر وأخذتُ أنا من قبل ضابط آخر إلى صوب مكان حيثُ أمرتُ بخلع ثيابى فى غرفة خضراء صغيرة ، وحينما احتججت على هذا التصرف ، أخرج أحدهم مسدسه من جرابه مصوباً إياه نحوى . . كان هذا هو جوابهم وكانت هذه هى التجربة الأولى لى مع التهديد بالعنف المتعمد والرسمى ، حتى أن الضابطين سخرا منى عندما بدأت أصرخ ببعض الكلمات العربية

التي تعلمتها من الجزائريين في باريس ونظروا إلى بعذر وهما يتمتعا بالعريية حول كل شيء يلمحانه ، ثم شعرت بهراوة الضابط تخز ردفي مما جعلني أندفع إلى الامام فاسحاً ما بين ساقي بينما سحب الآخر ماسورة مسدسه أعلى وأسفل ظهري وهمس بالفرنسية لي بالبقاء هادئاً ، أما الرجل الآخر ذو الهراوة فقد حقق معي وهمس لرفيقه وأعادها مرات أن أبقى صامتاً ، في نهاية المطاف امراني بالوقوف ، أدارا ظهريهما لي وهما يفتشان ملابسى ، وأثار أحدهم دهشتى حينما سألتنى بإنكليزية ضعيفة (أملك أكثر من هذه النقود ؟) أجبتة بالنفى وأنا أرتعش من البرد فأجاب ، ليس مالا كثيراً بالنسبة لسائح وخصوصاً سائح أمريكي ، قلت " لا أحتاج لمال كثير " ، ثم سألتنى . . . « لا بد أن لديك أصدقاء كثير هنا » . . . أجبتة بالنفى ، قال : ارتدى ملابسك ، حيث أعادوها إلى مع أغراضى التي كانا يتفحصانها ، أدارا لي ظهريهما مرة أخرى بشكل رسمى جاف فيما كنت ارتدى ملابسى ، حقاً كنت أرتجف وهما يرافقانى خارج الغرفة مارين بى على سواخ عرب وأجانب حدقوا بى ، ثم سلمانى أشياء تاركين إياى فى الشارع دونما أى إيضاح ، لم أقم حتى بتفحص محتويات الحقيبة فالأمر فى تلك اللحظات لم يكن بذى أهميه بالنسبة لى ، حتى ساعتى اليدوية الرخيصة التي انتزعها أحدهم منى عنوة دون أن يعيدها ، لم تشكل بالنسبة لى خسارة مهمة .

على أية حال ، لم يزل النهار مشرقاً فى الخارج ، حقاً كان يوماً دون نهاية أو حد ، هكذا هى مشاعرى وأنا أرفع بصرى صوب سقوف مقشطة وبنائات بيضاء منهارة كانت تتجه نحو سماء زرقاء مخضرة . وخننت أن الوقت مازال يتراوح ما بين الرابعة أو الخامسة عصراً . سرتُ

فى الطريق باتجاه كلمة (صرافة) حيث استبدلت صكوك المسافرين (ترافل جيك) التى كانت معى ببعض النقود المغربية . طلبتُ من أمين الصندوق أن يدلنى إلى موقف الباص الذاهب إلى الجنوب ، سألنى : إلى مراكش ؟ أجبتة : نعم ، مستحضراً معرفتى البسيطة بالأسماء والأماكن فى المغرب التى تعلمتها من خلال إقامتى فى باريس ، أخرج الرجل جسده من الشباك مشيراً لى باتجاه اليسار وسألنى إن كنت بحالة جيدة ، حيث كنت بالكاد أستطيع حمل يدي بشبات . وبالطبع مازلتُ أؤمن أن كل شيء ممكن من وجهة النظر الأمريكية ، وفى محطة الباص كان هناك حشداً من الباصات التى تنظم مقدماتها إلى الداخل وكأنها عقدة متضخمة ، ويكتظ الباص بالناس المتزاحمين داخله ، ولا يبدو أن هناك راكباً يحمل تذكرة ، كذلك لم أستطع أن أقرأ أية علامة على واجهة الباص والتى تشير إلى وجهة الأماكن التى سيصل إليها ، لم تكن هناك محطة ، إنها فقط باصات وحشد من مئات الناس الذين كنت واحداً منهم ولكنى كنت أختلف عنهم بلباسى الذى لم يكن الجلالية أو الطربوش ، وكنت قد أطلقت لحيتى ، كذلك مسحتى الأجنبية ، كل ذلك جعل الآخرين يحدقون بى كلما اقتربوا منى . تنقلت من باص إلى آخر متدافعاً عبر الزحام متأملاً أن تظهر أية إشارة أو دلالة مكتوبة بالفرنسية أو الإنكليزية فقد تأتى السماء بمعجزة .

فى غمرة الزحام ، فجأة واجهت صبية لم يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمره كان الناس يتجنبونه حيث كان يعاني من مرض (السقوه) ، عيناه مغلقتان من كافة الجوانب بقشرة جافة تتساقط من جلده ، كان الناس يتهامسون بشكل إيقاعي عن الصبي ويشيحون بأعينهم عنه ، مد يده المتوسلة نحوي ثم تحلق الآخرون حولنا فى دائرة صغيرة وصفروا «بخشيش»

طالبين مني إعطاءه بعض النقود لكي يروا إذا كنت سألمس يده أو أدعه يلمس يدي وتحسست سروالي فوجدت ورقة نقدية ودون النظر إلى المبلغ أعطيتها له ، كان يحاول تحريك شفته محاولاً الكلام فاختطف الورقة ماساً أصابعي بجلده (المتقرح) وحينما تلامسنا توقف الحاضرون عن الصفير ، وأسرع الصبي من الناس الذين تفرقوا لأجد نفسي محشوراً في الوسط وقد أحاطوا بي من كل الجهات ، حتى لكأنني في حلم حقاً ودون أن تتحقق رغبتني بالحصول على إشارة للمكان الذي كنت أنوي السفر إليه وجدت نفسي محشوراً في باص في مقعد قرب النافذة تجاوزني امرأة محجبة مع طفلها ، وسألت بالفرنسية فيما لو كان الباص يأخذني إلى الرباط ، فما كان منها إلا أن أشاحت بوجهها عني دون إجابة ، ثم سمعت صوتاً قريباً مني "نعم أيها السيد . . إلى الرباط " وحين استدرت خلفي لم أتعرف على ذلك الوجه الذي تحدثت قبل قليل ، لم يكن أمامي من خيار سوى الاسترخاء والذهاب حيث يذهب الجميع . وما قد توقف الباص ، ليندفع الكل بحركة إلى الخلف ثم إلى الأمام مبتعدين عن عرش الباصات على امتداد الشارع المؤدي إلى المرفأ ، وقام صبي بجمع التذاكر من نافذة إلى أخرى في الوقت الذي كنت فيه لا أملك تذكرة ولا أعرف حتى كيفية اقتنائها . فجأة صرخ الصبي في وجهي بالعربية " النقود . . النقود " ، ثم جاء صوت آخر من الخلف : "هي خمسة دراهم فقط " ثم جاء صوت آخر من الخلف . لم تكن معي إلا ورقة نقدية كبيرة الفئة فسلمتها للصبي عبر النافذة ؛ حيث شخصت عينا الطفل الذي كان بجانبني إلي مثلما فعلت أمه من خلال حافة خمارها حين ظنت أنني أنظر جانباً .

وبعد عناء طويل وصل الباص إلى الرباط حيث واتحد الوقت والمسافة ،
 إتحدتا بانسجام وكآبة مروعين ، ولم تكن رتابة الفجر هذه سوى إيقاع دندنة
 الراكبين . كانت توقفات الباص دون أي مبرر كما يبدو في فضاءات صحراوية
 دون أي مبرر كما يبدو من أجل إنزال بعض الراكبين ودون سبب واضح أيضاً ،
 في الوقت الذي لم نكن نبصر البيوت ولا القرى لكننا كنا نتخيلها في الأفاق
 الواضحة وكأنها حقاً تريد الاختباء ، في الرباط كانت المحطة أكثر تنظيماً ،
 فهناك أوقات محددة بين رحيل باص وآخر ، أكشاك التذاكر متوفرة ، ورغم
 تأخر الوقت فالحشود والإرباك بقيا على حالهما ، بعدها تجولت في المرافق
 العامة حيث حصلت على بعض الخبز والجبن والمشروبات الغازية (من أحد
 الأكشاك) ثم قطعت تذكرة للمحطة القادمة (الدار البيضاء) ووصلت عبر
 الزحام إلى داخل الباص .

إن الذهاب إلى الدار البيضاء يعد أمراً مشوقاً . فقد توقف الباص في
 منتصف الطريق مفرغاً نصف راكبيه أو أكثر ، وتوقف السائق أيضاً في
 موضع (مجهول) تاركاً الباص أمام أعين الجميع مختفياً في الصحراء ،
 لم تكن هناك أية إشارة للوقت ثم خرج بعض الركاب ليتبولوا إلا أن النساء

بقين في الباص وما تبقى كان يغط في النوم ، تخطيت الراكب النائم إلى جانبي وهو رجل كبير كان رأسه متدلياً إلى الأمام يوازي أحضانه ، واندفعت إلى الأمام عبر أولئك الجالسين في المعر ثم ذهبت خارج الباص . . لم يكن الظلام حالكاً رغم أن الوقت كان ليلاً ولم تكن السماء معتمة كتلك العتمة السوداء المزرقّة التي عرفتّها منذ زمن الطفولة في الساحل الشرقي لميرلاند ولكنه لون أزرق مخضر فاتح مضيء لا يتّمي إلى أول اليوم ولا آخره ، واستطال الوقت بين الغسق والليل ، في هدأة تلك اللحظة سال عطر الخزامى من الورد مثل ذاكرة ضعيفة لكنها كانت من القوة ما يمكنها البقاء على قيد الحياة ، كانت الكثبان الرملية الناعمة تميل إلى اللون البرتقالي المصفر ، أما منظر الأرض التي أحتوت بعض الشجيرات الصغيرة وبشكل منسق منظم استحوّلت إلى لون زيتي أخضر فيما كان البحر في الجهة اليمنى غير المرئية من الطريق وإلى اليسار حافة الصحراء . إنها المرة الأولى التي أرى فيها نفسي مضمحلاً في البون الشاسع بين الاثنين ، حيث سرت في الصحراء بالاتجاه المعاكس لمسار السائق ، مشيت لمسافة مائة يارده حيث أنحدرت الرمال ولم أعد أرى الطريق ولا الباص ، تبولت في ما اعتقدته مكاناً خالياً تماماً إلا من قطع صغير للجمال حوالي خمسة وهي تتحرك سوية لكي تعدو القمة القريبة وأنا أتوجه نحو القطيع لأتفحصه عن قرب ، هجم علي رجلان ملثمان يرتديان الجلاية على ظهري فرسين مما جعلني أشيح بوجهي وأعود راكضاً للخلف وأنظر خلف منكمبي قبل أن أنحدر عبر كثيب عائداً إلى الشارع ، وتوقف الرجلان وهما يتفحصاني ، رفع أحدهم ذراعه اليمنى في حركة هستيرية

ملوحاً لي بالابتعاد عن دريهم ، امتثلت له وعدت إلى الباص ، فوجدت مقعدي وحقيبتي في عهدة الرجل الشيخ الذي كان قد صبحا من النوم وتحدث معي بالعربية . في الوقت الذي لم يكن أحدهم يعرف الفرنسية لأوضح له الأمر ، بقيت ألتزم الصمت مثلي مثل الآخرين والذين كانوا قرابة خمسين مسافراً يخلدون للراحة . أسلمت نفسي للنوم وصحوت فجأة حين استدار السائق في حركة ارتجاجيه وتغير الضوء التدريجي ثم عاد الباص إلى شكله الفوضوي . في الدار البيضاء كانت هناك المحطة وبائعني التذاكر الذين يتحدثون الفرنسية كما هو حالهم في الرباط ، حيث ذكر أحدهم أن المسافة إلى مراكش في حدود (٢٠٠) كم ، وفي الوقت الذي كان أحد الباصات بهم بالرحيل أسدى لي أحدهم النصيح بتجنب السفر في منتصف النهار خوفاً من أن تجفني الشمس لذا عليّ أن أستقل الباص في الحال ، وحصلت على زجاجة من الماء وبرتقالتين وقليل من الخبز وقطعة حلوى ، كان الباص ممتلئاً تماماً بالمسافرين .

إن الباصات تشعرني بالقرف سواء كنت واقفاً أم جالساً فالأمر سيان . إنها مسألة الذوبان في استجواب حاسم لمعنى رحلتي هذه . . . إنها بصورة عامة حكمة الإنسان وعلى وجه الخصوص عجزه عن إدراك ذلك . على أية حال ، وضعت طعامي في حقيبتي وبقيت يلفني الصمت محشوراً بين رجل وامرأتين واقف في منتصف عمر الباص ثم بعد ذلك أدارت المرأتان ظهريهما . كانت أشجار الزيتون تتناثر على امتداد الطريق الريفى والتراب البرتقالي يحمر كلون الأجر القرميدي ونحن نوغل في الأعماق . حيث المر يتخلص من ركابه ببطء ، ففي كل وقفة كانوا

هؤلاء ينطلقون عبر الحقول باتجاه البيوت الطينية الصغيرة ، وسفوح التلال أبقت على طيور اللقالق أما الصبية فكانوا يقفون فوق جسر منتصب على جداول تكاد تكون خاوية ، حاملين الأسماك الصغيرة المتدلية من خيوط السنارات ، وفوق جذوع الأشجار النحيفة وعلى امتداد الطريق تقف نساء مسنات يلوحن بالقواقع للحافلات المارة ، حين وصل الباص إلى الجبال التي تتحلى بعض قممها بالجليد وكأنها عناقيد غيم ترفرف فوق الأرض ، بدت التربة وكأنها شرائح لجسد مخضب بلون الحناء الغامق ، وجدت لي مكانا ونمت كالحالم ، وعندما استيقظت لم أر غير ظلمات مليئة بالعتمة والشحوب ، مترققة كالحرارة التي بدأت تأخذ بالارتفاع والجو الذي بدأ ينذر بالظما .

سار الباص عبر شارع مراكش الرئيسي الذي يحفل بالأشجار التي انتصبت على جانبيه ماراً ببوابات المدينة عبر مداخل الحدائق إلى الفنادق الضخمة والقصور ذات النافورات والمسابع المحاطة بالنخيل . بعدها توقف الباص في ساحة كبيرة أمام المدينة القديمة المنبسطة ثم أنزل المسافرين ، بعد ذلك ، فجأة ، أبصرتُ مجموعة من أفراد الشرطة الذين ارتدوا زيهم الرسمي الذي لا يتسم بالذوق ، دون أن يعملوا شيئاً . كان نوعاً من الاستعراض الذي أعقبه مشاهدتي لأحد الباعة الذي يحمل مجموعة من القبعات المحاكاة البيضاء فاشتريت واحدة منها وانحنيت للبائع وهو يحاول أن يضعها فوق رأسي والتي بدت مغايرة تماماً للون ملابسني التي عبث بها سخام غبارمئات الكيلومترات من هذا الطريق .

خلت الساحة من المارة الذين هربوا من لفح الشمس وحرارتها وأوصدت أكشاك الملابس أبوابها بالمزلاج والبعض الآخر وضع عليها الخيام أما باعة الماء فقد كانوا يقدمون بالحاح مالداهم من ماء فى علب معدنية قلرة فما كان من السواح والمارة إلا تجاهلهم .

ثم انتقلت أنا لآتابع مشاهدة ساحر الأفاعى وهو يطوى بمهارة وحذر شديدين (كوبرا) صغيره معيداً إياها إلى سلتها ووضع الغطاء عليها ، على مرأى عدد ضئيل من الأطفال الذين أصابهم الدهول وهم يطالعون ذلك .

ثم رمى الرجل بحفنة يد مملوءة بالحبوب لحيوان النمس* المربوط فى القفص سار بعدها هذا الحيوان بخطوة مسرعة إلى الداخل ليوصد الرجل بابه بالمزلاج .

برم الساحر حصيره وربط نهايته وجذب كرسيه إلى حزام خصره بعدها وضع القفص والسله والحصير تحت ذراعيه وفى يده كذلك على

* النمس : حيوان صغير له ذيل طويل ، يعرف بالنكاء الذى يمكنه من القضاء على الأفاعى

كتفيه بالتعاقب ومن ثم سار إلى مدخل المدينة . إما أنا فقد أبصرت علامة تشير إلى وجود فندق فى الساحة التى تقع فيها بناية رخاميه بلون الأبيض والأسود لكننى قررت متابعة الباعة والمهرجين بعيداً عن ذلك المكان ، وإلى مدخل المدينة ، بدأ الفندق للوهلة الأولى من طراز الدرجة الأولى .

أما الأزقة فقد تحولت وبسرعة كبيرة إلى عمارات لا تكاد تكفى إلا لاثنيين أو ثلاثة من المارة الذين يسرون جنباً إلى جنب أو ربما يكاد يتسع لعربة صغيرة جداً تمر خلاله ، إن تشابه الأزقة يؤدي أحياناً إلى اتساع الفضاءات وكذلك الساحات التى تنتصب فيها النافورات ، ثم تعود هذه الأزقة بالانحسار مرة أخرى حيث قادتني مرتين إلى نهايات مقفلة مما اضطرنى ذلك إلى العودة أو اتخاذ مسار آخر .

لقد أغلقت جميع المخازن التى كانت مفتوحة وذلك لتناول الطعام واخذ قسطاً من الراحة لأصحابها والعاملين فيها . لمحت رجلاً يجلس على الأرض وهو يقوم بغزل صفائر الستائر وقفاً الكراسى وقد راح يمضغ بيضة مسلوقة بينما كان إبريق الشاي يغلى فوق موقد نفطى بالقرب منه ، التقت عينانا ولكن دون أى تعليق ، وفوق مسطبة متوسطة الارتفاع شاهدت صبياً يقشر برتقالة متحدثاً الى بالعربية كاشفاً عن بعض أسنانه المفقودة ، ثم توقفت متفحصاً صبياً آخر يضع وتداً عند قدميه وشفرة الحلاقه تتوسط أصبعى قدمه اليمنى بينما كان ينشر بواسطة القدم الأخرى الوتد المتحرك ، ابتسمت دون لمس أى شىء ثم سرت مسرعاً لأتناول شيئاً من الماء الدافئ الذى كان معى ولأعد ما تبقى لدى من طعام . . وهو بالطبع . . "البرتقالة" ، كنت حقاً قد أضعت دربى ولكن الأمر لم يعد يشكل لى

أية أهمية . . كل ما يهمنى الآن هو الهرب من دوامة التفكير ، هذه التى كانت تشلنى ، أخذت أسير ببطء منحنى الثقة التى استعديتها للتو كذلك الحيرة من الذى سيحصل بعد ذلك .

كان الضوء يملأ الأزقة الواسعة عندما كنت أمر فى كل واحدة منها حتى خف الضغط الذى كان قد شدّ دماغى عندما كنت حاسر الرأس وأصبح أقل مما كان عليه حين ارتديت القبعة البيضاء خلال تجوالى فى الساحة خارج هذا المكان ثم أخذنى الشارع الواسع لأحدق ببالات كبيرة من الأقمشة الصفراء القديمة المصبوغة حديثاً وهى تحوم متألثة تحت سماء زرقاء صافية ، إن تواءم اللونين الأصفر والأزرق معاً وكأنهما من جوهر واحد لكنهما من صبغتين مغايرتين .

حدقت لبرهة فى اللونين المميزين مدركاً رسالة غريبة ، مجهولة دون أن يكتبها أحد وفى ذات الوقت فر خيالى بعيداً دون أن أعى ذلك ، تمنيت لو أن الأصفر والأزرق ينفصلان بنغم متناسق ليعزفا معاً بصمتٍ لحناً غير متوقع وهما يتعانقان بحرارة .

إن هذا التأمل سبب لى شيئاً من التعب فسرت حتى وصلت إلى ساحة اصطفت فيها الحافلات والسيارات الصغيرة الفارغة ثم جلست بمحاذاة حائط بناية مسنداً رأسى على ذراعى وركبتى لأمنح عيني شيئاً من الظل ، أما الآخرون فقد كانوا يأخذون قسطاً من الراحة على امتداد الجدران فى مسارات الظل الضيقة دون حراك ، نائمين أو يكادون يكونون كذلك ، لقد كنت حقاً أمائلهم فى اللون بعدما لوحتنى الشمس خلال الرحلة الطويلة إلى أسبانيا . استيقظ الجميع فجأة من إغفاءة هذه الراحة المؤقتة ، حينما

مرت إحدى السيارات فى الساحة دون أن تجد لها مكانا ، قام سائقها بحركة بهلوانية أزعجت الآخرين واضطرتهم للتحديق بوجهه ، ووقف أحد الرجال متميلاً ذات اليمين وذات الشمال وهو يحاول اللحاق بتلك السيارة .

منذ أن غادرت طنجة التى كانت تعج بالعديد من السكارى الذين يصطفون فى الشوارع المواجهة للبحر لم أرَ ثمل كهذا الذى اقترب ليلمس السيارة ويركلها بقبضته وقدمه مما أدى إلى تشويه أبوابها ، ثم جاء سائقها لاعناً ومهدداً إياه بالخروج لكى يكف عن عمله ، وفجأةً انحنى الرجل الثمل بالخمرة وهو يتأرجع بالحجر الثقيل الذى رفعه بكلتا يديه ليرميه إلى الجانب الآخر من الشارع ، أسرع السائق تاركاً الساحة ، ثم وقف الرجل ينظر حوله مهدداً الجميع حيث أن الرؤية لم تكن واضحة أمامه (وكأننى كنت أقرأ أفكار الرجل المتلاطمة متنبأ بالذى يمكن أن يحدث) لكن السكون والجمود أصابا بصرى حتى لم أعد قادراً على الحراك وإذا بالصخرة تتجه صوبى بشكل عنيف شعرت وكأنها تشج رأسى فى زاوية قائمة ثم سقطت مغشياً على .

الجزء الثانى

عندما استعدت وعيى فيما بعد . لم أكن أعرف كم مر من الوقت لكل ذلك ، فالرؤية لم تتضح لى ، إلا أنى كنت أستطيع أن ألمح شخصاً يجلس بجانبى . شيئاً فشيئاً أدركت حالتى حيد . كنت ملقى على سرير فى غرفة مغلقة ، استطعت أن أرى الأشجار وأشم عطر الزهور ، سار هذا الرجل نحوى متحدثاً إلى بلكنة إنكليزية (هل يؤمك أسك كثيراً ؟) أجبت ، " نعم .. أننى لا أقدر على رؤية الأشياء بوضوح " .. قال لى : " حقاً أننى أسف جداً لما حصل ، فالتاس فى المدينة يحترمون ال وار ، لكن هذا الرجل تصرف بشكل مغاير تماماً " .

ثم سألت : « أين أنا الآن ؟ » .. أجابنى .. فى منزل السيد محمود جبروف وقاطعته .. « وهو أنت ؟ » .. فقال لى .. « لا .. أنا الدليل حسن " .. أجابنى بشكل غريب ، " لماذا جىء بى إلى هنا إذن ؟ " قلت له ، فأكمل ، " لقد شعر السيد جبريوف بالخزى لنا نحن البربر بسبب سلوك هذا الرجل فأحب أن يقوم بترضية أو يصلح الموقف ويجعلك ضيفه ، إنه رجل مهم فى هذه البلدة " . قلت له : " أشكره بالنيابة عنى . فأنا ممتن لما فعله لكنى أشعر بأننى بخير الآن بحيث أستطيع تدبير أمرى " .

ضحك الرجل ، ثم أدركت بعدها أن الآخرين يعتقدون أنني عاجز عن فعل أى شيء حتى لو كان اعتقادى كذلك .

وعندما رفعت يدي لأتحسس وجهي أدركت أن رأسي مازال معصبواً ، شعرت وكأننى أصبحت عالة على أصدقاء أجهلهم ، لم أكن أميز الأشخاص ، وليس من شيء واضح ، غير أننى أكاد أجزم بأن ما حدث لا يشير الخوف إلى هذا الحد

كنت مطمئناً لأننى مازلت فى السرير ترافقتى ضحكات حسن الذى كان قريبا . . . هذه الضحكات الجديرة حقاً بالشفقة ، على أية حال لم يكن لى أى خيار غير ذلك ، أخبرنى حسن بأنه سيقوم بمرافقتى بجولة فى المدينة ولكن حالما يتحسن حالى بالطبع . أجبت : " شكراً فأنا معتاد أن أكون وحدى " . ثم قاطعنى " لا أحد يستطيع معرفة المدينة بدون دليل " لقد بدا لى أكثر واقعية من أن يكون مهدداً أو متوعداً إياى . كلما هممت بالحركة أحسست بألم ووجع قاسيين فى رأسى ، ثم قاطعنى حسن بسؤاله " لماذا جئتُ إلى هنا ؟ " . وحين بقيت صامتاً قال : " الله وحده يعرف السبب " فأخبرته بأننى لا أعرف . . ثم استلرك قائلاً هل أنت مسيحي ؟ ' لم أعود الإهتمام بشؤون الدين . أجبت بواقعية وبراءة شديدتين تخلو من حذقة الملحدين ، وفى الوقت الذى كنت أشعر كم أنا ساذج كان هو (أى حسن) كثير الشك " الله وحده يعرف لماذا أنت هنا " . قلت له : " إن إنكليزيتك ممتازة " . فشكرنى وأخبرنى أنه تعلم ذلك من الناس الذين يرافقهم فى تجوالهم كدليل سياحي . واستفسرت منه : " أكانوا أميركان ؟ " فردّ . " نعم . . . وهناك إنكليز أيضاً " . قلت له " أرغب تعلمى لغتكم

" فسألنى " العربية أم البربرية ؟ " فأجبت مسرعاً " العربية " التى ألفت نبراتها من متحدثيها عبر طريق السفر ، قال .. " إننى أعرف هنا سيداً يعلم الصبية دروس العربية والقرآن .. سأطلب منه أن يعلمك " ، سألت بدهشة : " الأطفال ؟ " فردّ .. " إن ذلك هو الطريق الأمثل لتعلمك اللغة فيجب أن تنصت وتحفظ وتردد كالأطفال .. وهذا سوف يساعدك " .

أثار هذا الأمر الشك لدى ، فيما عاد رأسى يؤلمنى مرة أخرى . طلبتُ منه أن يعطينى حبوب الأسبرين من حقيبة الظهر الثانية . قال .. " كل شيء يخصك محفوظ هنا فلا داعى للقلق .. لقد أمر السيد جيربوف بشيء يفيدك ، أنه علاج شديد الفعالية يجعلك تستسلم للنوم " .. فسألته " ماذا ؟ " .. " الأعشاب " .. رد حسن .. واسترسل .. " إنه يثق كثيراً بأحد باعة الأعشاب هنا ، إذاً سأحاول " .. قلت له ، وذكر لى أن الدواء له طعم لذيذ يحضر كالشاي ويُشرب بعد ذلك .

حينما تحرك حسن من الغرفة رأيت شخصاً آخر عبر الباب .. ربما كانت إمراه ترتدى جلاية ذات لون زمردى حيث لم يكن اللون واضحاً لى ، ثم قدم لى الشخص الآخر قدحاً من الشاي فامتدت كف صغيرة نحوى فى تلك اللحظة ، لم أستطع تبين وجهها رغم أن وجه الشخص الذى قدم لى الشاي كان يختفى تحت اللثام ، احتسيت الشاي ببطء وبدأت أفقد الإحساس بالأشياء التى حولى ، اندفعت ذاكرتى نحو غرفة تركتها فى شارع " فيسكونتى " الضيق فى باريس .

لم تكن الرؤية واضحة أمامي فيما كنت أسير مع حسن صوب المدينة فقد قلّ وزني وفقدت ساقى قوتها لذلك أحاول أن أمسك الدليل بذراعى ونحن نحث الخطى ، مررنا بأشياء عديدة ورغم سيرنا البطيء إلا أننا توقفنا مراراً نحتسى المشروبات الغازية بسبب الجفاف وشدة الحر ، ثم راح حسن يخبرني حكايات غير واضحة ونحن نجوب الطريق ، حيث تحدث عن معلم يعرفه سارداً على حقائق بديهية عن رجل كبير وأدركت أن لا أحد يعرف هذا الرجل وإنما هي استحضارات الكثيرين عن صور المعلم وربما كنت خاطئاً فى تصورى هذا .

قال حسن . . . " أخبرنى المعلم ذات مرة . . . بأننا نعيش فى عالم من الإشارات ويجب أن نتعلم قرائتها . . . حيث لم تكن تهمة تفاصيل هذه الإشارات عدا عن كونها ذات معنى " .

وتساءلت فى سرى . . . " أية إشارات ؟ "

بعد ذلك قابلت بائع الأعشاب المظمن فى مخزنه الصغير الذى لا يكاد يتسع إلا لشخص واحد ، كان الرجل ، الذى يفتقد إحدى عينيه ، يحتفظ بالأعشاب بزجاجات صغيرة وحاويات طينية متراصة على رفوف ملأت الجدران .

تحدث الرجل بصوت أجش مع " حسن " بالبربرية . . . ثم بدا الرجلان صارمين رغم أن البائع الذى اسمه آسام ضحك وهو يمسك بيدي فى الاستقبال والتوديع . . . وذلك ما يدل على أن أعشابه جيدة فمريضه

الشاب كان يسير فى المدينة معافى . دعانى الرجل " بن توماس " بعد أن سأل عن اسم والدى الذى مات قبل خمس سنوات وذكر لى أن عنده عشب للنشاط الجنسى وشكرت الرجل رافضاً العشب المذكور فى الوقت الحالى .

ثم انطلقنا فى جولتنا لنمرّ بالعديد والمزید من اللقائف القطنية الملونة المتدلية من فوق الأسلاك بين البنايات وتسمرت عيناى على لفة خضراء داكنة كانت تحور السماء الأرجوانية فى ألفة بهية ، أشرت لصاحبى من أن هذه اللقائف ماهى إلا عبارة عن مجموعة من إشارات دون معنى ، ورسائل مبهمه . . لكن حسن لم ينطق بأية كلمة .

ذات يوم رافقت حسن إلى حديقة فى فناء بيت مغلق وبدأ بذكر أسماء الزهور مما جعلنى أميز ألوانها بشكل واضح فبدأت الألوان البرتقالية ، الصفراء والأحمر الداكن ، كذلك الأزرق ، تكبر حجماً وتأخذ شكل أوراق الأشجار وجذوعها الممتدة على خلفية من الطين البرتقالى اللون ، تماماً كما كانت كذلك الطرقات وهى تكتسى بالآجر الأبيض والأزرق .

جلسنا صامتین فوق مصطبة حجرية فى الحديقة .

ثم نظرت إلى كل ما تمكنت عيناى من رؤيته وفى وقت لا يحده زمن . كانت هناك أيضاً نافورة صغيرة وسط الحديقة ، يأخذ ارتفاع مرشتها حوالى ٤-٥ قدم ، أخبرنى حسن أن ماءها يأتى من أعماق الأرض .

وبعد فترة حينما عدنا إلى ذلك المكان ، وجدنا جلد ثعبان قرب أحجار النافورة . . قال حسن معلقاً . . " إن هذا منظر مألوف فى المدينة لكثرة الأفاعى والتى تكون فى الغالب غير مؤذية أو سامة . . ولا تهدد أحداً بأى شكل من الأشكال .

بادرنى السيد محمود جبروف بالسؤال . . . " هل كان حسن مرافقا جيدا لك ؟ " (حيث زارنى مضيفى مراتٍ عدة قبل أن أستعيد كامل وعيى وأحياناً عندما كنت أستعيد الوعي لفترة قصيرة ، لكن زيارته الأولى كانت لشرب الشاي بعد أن عادت الرؤية لى بشكل واضح) .

ثم سرحت أفكارى فى هيئة ماكان يرتدى مضيفى من ملابس غير متناسقة تتألف من سروال أبيض وقميص ورباط وسترة " تويد " إنكليزية ، كان لباسه متناقضاً مع ما ارتدبته أنا وكذلك حسن وبقية الناس فى الشارع الذين ارتدوا الجلابة والصنادل . . . ولقد أدهشنى ذلك التناقض .

كان هو وحسن يتمتعان ببشرة بيضاء مثل بشرتى رغم أن بشرته كانت تميل إلى الخضرة بينما هى عاجية اللون لدى ، وشعره كان قصيراً ومتجعداً أما شعرى ولحيتى فقد ازدادا طولاً وتقصفاً .

كان الرجل فى منتصف الأربعين أى له ضعف عمري ، لقد جعلنى أشعر نحوه بامتنان كبير وعبرت لحسن عن ذلك .

وتابع وهو يقول لى : " أنت فى بيتك ، لقد كنا قلقين بشأنك ،

والرجال الذين أتوا بك إلى هنا ظنوا أنك ميتٌ واحتاروا ماذا يفعلون بك ولكنك ماتزال حياً كما ترى " .. وضحك مثلما فعل صاحب الأعشاب .

أجبتة .. " نعم .. بكل امتنان " ، قاطعنى قائلاً .. " لا داعى لهذا القول ولا تقل شكراً إلا لله ، فما فعلناه أمر طبعى " .

وسألته " هل تعرف من رمى الحجر ؟ " حذق الرجل فى لبضع دقائق ثم قال .. " كلا .. لا أحد ، ونحن نعتذر . " حقاً لقد أخرجنى جوابه حتى تلعثمت ثم سألته : " كم من الوقت مضى على وأنا هنا ؟ " ليس بالكثير ولا تبالى " . أسئلة كهذه كانت ممنوعة كما يبدو وتساءل الرجل " هل لديك رغبات أو حاجات تود لو أنها تتحقق " قلت " كلا فكل شىء جيد وممتاز " ، فأكمل " قال لى حسن أنك تريد تعلم العربية " " نعم " ، هكذا أجبت .. فأردف قائلاً .. " إذن يمكن ترتيب الأمر لك " .

كنت منفعلاً ، لذلك تحدثت بصراحة ، قال الرجل : " من الطبيعى ذلك " ، " هل أحببت الحديقة ؟ " " كثيراً " .. أجبتة حيث كانت غرفة نومى تطل على الحديقة الصغرى المجاورة التى وضع فيها كرسى من الخوص ومنضدة شاي نحاسية قدم لى فيها الطعام خادم يدعى حبيب .

كانت العصافير تطير متنقلة فوق الجدران وهى تستقبل الضيوف ثم تعود لتنام فى الأشجار . واستمر فى كلامه " آمل أن تجد هنا مكاناً للقراءة والكتابة ودراسة العربية أو ما ترغب بعمله " . وأكدت له بعد ذلك أن كل شىء على ما يرام . بعدها جلب حبيب لى شاي النعناع وقطعة عسل صغيرة وكيك باللوز .

كنت أسمع الطيور وهى تزقزق بانفعال على الأشجار لكنها صمتت
ونحن نرتشف الشاي ، لم يوجه لى محمود أية أسئلة ظناً منه أنى مواطن
أمريكى عادى أو هكذا بدوت له . كان الشاي معداً بشكل جيد لكنه مازل
غير مناسب لى وسألته بارتباك : " هل أنت رجل أعمال؟ " . وضحك
مضيفى قائلاً . . . " نعم عندى عدة أعمال ومنها صادرات إلى أوروبا وأمريكا " .
" إذن أنت كثير السفر؟ " " نعم . . . زرت نيويورك وشيكاغو
ولوس أنجلوس ، وعندى الكثير من الأصدقاء فى كل مكان كذلك فى
العمل هناك استيرادات كثيرة هناك ، فالبضائع البربرية تقدر فى أماكن
عديدة " ، تحدث الرجل بمبالغة وشعور بالفخر ، ولاحظت أول نقاط
ضعفه وشعرت بعدم الراحة للجلوس معه وذلك مالم أشعر به مع حسن ،
وتساءلتُ فيما لو أدرك السيد جيربوف هجائى له فقد كنت ساذجاً إلى
حد كبير . . . وتابع القول مضيفى " إنها المتعة أن أخدمك وأراك تشفى
من جرحك المؤسف " . ثم شكرته ونحن ننتهى من احتساء الشاي .

وبعدما استعدت الرؤية بوضوح ، أكملت مع حسن السير عبر المدينة ،
 وفي إحدى جولاتنا وقبل منتصف النهار مررنا بزقاق ضيق احتلت الشمس
 جدرانه البيضاء الصلدة دون أن تبقى متسعاً للظل ، التقينا بالرجل الذي
 رماني بالحجر ، كان يفترش الأرض مقيداً ، ربطت كلتا يديه وقدميه
 بحبال شدت مع حبل قصير واحد مرتبط بالاثنين ، حيث لا يستطيع
 التحرك إلا قليلاً وجلست إلى جواره امرأة ذات خمار بقربها زهرية ملئت
 بالماء وهي تسقيه في قدح معدني صغير ، نظرت إلى دليلى ونحن نجتازها
 في مسار ضيق ، لم نقل شيئاً رغم أن حسن أدرك الهجوم على وأحسن
 بالعقاب واهتز لرؤية المعتدى ، كنت سأسأل في غير هذا الحال وهذا المكان
 فيما لو كانت العقوبة عادلة أو قاسية ، وتصورت كم كان الموت قريباً مني
 ، ثم شعرت بالشمس تحرق جسد المعاقب في ذلك الممر الضيق لولا
 وجود تلك المرأة التي كانت تهبه الراحة بحمل الماء إلى شفتيه .

وتساءلت كم سيبقى هناك وكم من الوقت بقيت هنا ؟ بقيت صامتاً
 احتراماً لحسن والسيد محمود الذي قرر العقوبة ولأن حسن أمسك ذراعي
 وقادني مسرعاً خارج الممر ، مدركاً ما أصابني من انفعال مفاجيء . ثم

أخذنى الى الكتاب حيث المدرسة التى يتعلم الأطفال العربيه فيها ويحفظون القرآن ولكن دون فهم ، فدخلنا فناء مسجد صغير وجلسنا على الحصى قرب مجموعة أولاد مؤلفة من تسع من البنين والبنات يبلغون السابعة أو الثامنة ، يشكلون نصف دائرة ، يجلس أمامهم رجل كبير أشيب الشعر والشارب ، له لحية صغيرة مشذبة يرتدى طربوشاً وجلابية سوداء ، يمتلك بصرأ حاداً وله نشاط ملحوظ ، فى يده اليمنى عصاً رفيعة من الروطان وهو يرتل سوراً قصيرة من القرآن ، والتى راح الأولاد يرددونها بانتظام ، كما ذكر لى ذلك حسن الذى جلس معى لفترة قصيرة ، ثم نهض واقفاً دون أن يقول شيئاً وغادر فناء المسجد ، انتابنى شعور مفاجئ بالوحدة حين ابتعد عنى ، بعد ذلك كنتُ أنصت للشيخ وهو يرتل القرآن ويردده الأولاد بعده ، وبينما أحاول أن أجد تفسيراً للوضع الغريب الذى وجدت نفسى فيه مشاهداً الأولاد وهم يحاولون ترديد وإطاعة سيدهم وإن كان بعضهم يتهزئ وينخس الآخر دون ملاحظة المعلم الذى ترك مكانه وجاء صوبى لينهار على كفى بعصاه ، وصرخت متوجعاً ، فضحك الأولاد ثم صمتوا فجأة عندما حذق فيهم معلمهم مهدداً ، وعاد أثر ذلك إلى منصته ، استشطت غضباً وأنا أشعر بيدي وقد تصلبت .

وبعد أن تيقن المعلم من وجود تلميذه الجديد راح يعيد ويأصرار أكثر (السورة القرآنية) وأنا أحاول جاهداً أن أردد ماكنت أسمع وإن لم أكن أعرف الأصوات (الكلمات والأصوات الصحيحة وأصوات العلة) لكنى كنت أخشى أن أخفق فى التردد فكان الأطفال ينظرون إلى خلال فترة الصمت وأنا أبادلهم النظرات ثم نتابع معاً تقليد أصوات الشيخ كأحسن ما يكون .

لم يتسم الشيخ ولم يترك منصته بعد ذلك وإن رفع عصاه باتجاهنا
مرات عدة .

تحسست الأثر الذى تركته عصا المعلم فى كفى اليسرى عندما لم
أكن أتابع شفثيه وأحاول تقليد حركات لسانه والصوت الذى ينبعث من
فمه الذى لا يشعر بالتعب .

بعد ذلك عاد حسن لنغادر المكان معاً دون إخبار الشيخ لنعود مباشرة
إلى منزل السيد محمود جربوف - للحديقة ولغرفتى ، تحدثنا قليلاً حيث
سألنى حسن . . " هل فهمت شيئاً " قلت له " لا " . . ثم قال . . " هل تذكر شيئاً " فأعدت له ماحاولت استيعابه فى ذلك الوقت ليس أكثر ،
فسألنى إذا كانت لدى الرغبة فى العودة قلت له " نعم " رغم بعض
الشك الذى يلازمنى .

عدت ثانية للجلوس وحيداً مع الطيور ، أحتسى شاي النعناع الذى
قدمه حبيب بشكل خاص ورددت بصوت عال وعلى مسمعه فقرة تعلمتها
فضحك منى واستظهر المقطع بشكل صحيح لكننا لم نناقش معنى ما رددناه
وانساق الزمن فى بعد آخر بعد ذلك اليوم ، كان هذا الشيء حقيقياً بالنسبة
لى لكننى لم أفقه السبب ، ودون أيما تفكير فيما يجرى بدأ عقلى ينهض
من سباته ليردد عبارات طويلة حيه . . . ، إنها ليست لى لكنها رددت
بالعربية من قبل الشيخ الذى يتولى تعليم القرآن والتى رددتها دون فهم
فحواها . وصار الزمن (إيقاع أو صدى تلك الكلمات) التى أخذت
بترديدها بوضوح ، لم يعد الوقت لدى سوى إيقاعات وتتابعات صوتية ،
كان الشيخ يفصح من خلال كل ذلك عن خلجات روحه بتلاوته التى شد

إليها آذاننا الصاغية وانسحب هذا الشعور على المكان أيضاً إلى أبعد حد مما جعلنى أسير وحدى فى القناء المغلق مردداً ما حفظته دون وعى . شعرت وكأنى سجين ، هذا ما بدا لى تماماً ، كهجوم عرج على لكنى تعلمت الكثير من الشيخ فى الكتاتيب ومن حسن كذلك من مسالك المدينة وأساليب اللغة التى طلبت بسذاجة تعلمها ، لم أدع لنفسى الخيار فى ذلك ، كذلك لم يسألنى أحد ، هذا التساؤل كان خارج حدود الزمن (الحالى) حتى أنى كنت منسياً خارج حدود ما كان يدور حولى . . أهدانى حسن نسخة من القرآن تدربت على قراءتها وحدى ، ولم أتبين مدى الترابط فى بعض المقاطع بين الحرف وما تقتضيه من أصوات لأن الشيخ لم يعر ذلك أدنى اهتمام ، أى تعلمى الأبجدية أو أبسط قواعد اللغة الأساسية ، بينما كان حسن يشرح لى هذا الترابط لكنه لم يكن ينوى معارضة طريقة الشيخ فى التعليم . كان ذلك بالنسبة لى شيئاً مؤلماً حد الجنون مما أدى ذلك إلى خلق حالة إرباك ذهنى لى . لم تكن تلك هى المرة الأولى التى أغوص فيها بقناعتى داخل الأشياء وأتعبها لنهاياتها دونما أى إدراك ، وبالطبع ليست هذه هى المرة الأخيرة .

لم يتوفر لى قاموس يتشلىنى من هذه الورطة فى اشتباك المعانى مع لغتى الإنكليزية والفرنسية ، لم يكن هناك أى سياق يسمح بالترجمة سوى الإنهاك فى أن أردد وأقلد وأحفظ دون أى تساؤل . كنت مطوقاً بخيار معاشرة اللغة بقرف كبير ، ليس بسبب غياب المعانى ولكن الخوف من عدم الإحساس بلذة تعلمها حد الغوص فيها ، وسؤالى لحسن عما تعنيه المقاطع المضافة لأول الكلمات وآخرها ونهاياتها ومن إجابته بالإنكليزية

أدركت أن تلك الأساليب كانت تعنى أكثر ما حاولت الترجمة بيانه أو تقريبه لى وفى حقيقة الأمر أن الأخيره تفشل فى إعطاء المعنى الحقيقى للكلمة الأصلية عن طريق الإنسجام بين ايقاعات الأصوات المتشابكة فيما بينها ، كانت اللغة وبكافة أشكالها تبدو صلدة بحيث لايمكن اختراقها ، محيرة غامضة كالأحجار الكلسية القديمة الواقفة بوجه الريح .

إن إعجاز اللغة كان يكمن فى جرس الكلمة الموسيقى الذى تخطى حدود المكان و الزمان شيئاً فشيئاً . كفتت عن السؤال وتقبلت جهلى أمام إحساسى بعظمة هذا النغم تماماً مثلما عشقت عيناى الألوان بصمت دون أى تساؤل .

من وجهة نظرى التحليلية ، لم أكن أفقه شيئاً لكنى بدأت أستمتع أكثر فأكثر بكل ذلك ، كنا نتحاور لفترات طويلة وبغبطة متبادلة عن لغة القرآن التى نجهل كنهها ، على الأقل من جانبى أنا ، حتى أنى نسيت معنى الوقت ، بت لا أسأل نفسى كم مضى على وأنا هنا ، وكم من الوقت أنوى البقاء ، كنت أحسب الوقت بالتغيرات التى تطرأ على قيم الألوان فى السماء والبنىات والأشجار والتربة وكل شىء كان بعيونه الضوء . كذلك دورة الأرض ، كان الضوء الدليل الذى سيقودنى نحو تبدل الزمن كقيمة الصوت بالنسبة للمعنى ، كان اللون والزمن يمتلكان إيقاعاً متبادلاً بحيث كانا يخلقان حالة من الموسيقى المتناغمة التى تأخذ بالارتفاع وتشذب الإحساس لدى دون معرفتى سبب ذلك ، أحسست بظمأى المسرف للكلمات التى ولدت معى منذ طفولتى ولم أكن أشعر بامتلاكها الآن ، لكن منابع الكلمات حقاً تبقى واضحة فى الفراغ الخصيب للصمت

حينما يولد النطق بها وأنا أنصتُ للأصوات المسجونة التى جعلتنى أتساءل .. هل استطعتُ أن أفقه معنى تلك العاطفة حتى الآن ؟ وهل أستطيع أن أفصح عنها ببساطة أكثر دون أن يصيبنى القلق من عدم فهمها حينما أحاذر الصمت فقط ، أدركت أننى وجدت كلمات كنت قد ظننت أن عقلى المتعب قد فشل فى العثور عليها لكن الصمت عرّأها الآن .

كصخور الجيود(١) الموجودة فى المكسيك والبرازيل والتى تبدو للعين كتجويفات كلسية عادية حالما تطرقها تفتح لك ما تخبئه من كرسنال يشع باللون . أو تشبه الصمت الذى يجمع رفيقين فى رحلة مملوءة بأسرار مضيئة مخبأة ، لا تُعرف دون دليل وتناغم صداقة تحميها وتكشف لها المخبوء بشكل غير مرئى .

اللغة هى ثروة من الكرسنال ، هكذا بدأت أشعر دون الحاجة إلى تفتيت هذه الصخور إلى شظايا كي أوسّدها قلبى .. هل كنت واضحاً وساذجاً لأستمر فى الكشف مرة أخرى وأحمى هذه الصداقة التى عثرت عليها !! .

(١) صخور الجيود : هى حجر ذو تجويف مبطن ببلورات الجيود أو بمادة معدنية (

الترجمة)

منذ أن حللت ضيفاً فى المدينة القديمة كانت حياتى تمتلىء بشراء لا يوصف أحس بريقه فيما أرى من الصخور ، يذهلنى التحديق فى العوالم المضيفة الخفية ، حقاً رأيت العالم يتجسد فى الألوان المتمازجة بعضها مع البعض الآخر دون أيما تشويه لتلك الصورة فقد اختلط البرتقالى والأسود مع الأخضر الحانى بالبنفسج المتلألئ وكانها نغم مشترك فى الوقت الذى يحافظ كل واحد من تلك الألوان على خصوصيته التى تشع فى القلب . لاحظ حسن تغيراً جوهرياً فى تكييفى للعيش و فى درايتى غير الواعية للمدينة وذكر ببساطة ذات مرة لى ، " لم تعد تلك الغربية تؤملك .. أليس كذلك ؟ " لا .. فقد رفعت عصاية رأسى منذ فترة كما تعلم وعاد أثر الجرح فوق جبهتى الذى كان يمتد على طولها ، إلى حالته الطبيعى بحيث لم يعد وردياً محمراً .. فتغير لون الجرح هو المؤشر على طول إقامتى فى المدينة وأدركت لاحقاً وبخجل شديد بأنى قد نسيت من كانوا يشعرون بالضيق لاختفائى عن عوالمهم ، حتى أننى نسيت مراسلة أمى وشقيقتى الموجودتين فى أمريكا أو الأصدقاء والمعارف الموجودين فى باريس .

عندما بدأت بالتفكير على هذا النحو أحسست بذنب كبير وعاد إلى

الإحساس بحساب الزمن مرة أخرى .

فى يوم ما قال لى حسن . . " هل تفتقد أهلك وأصدقاءك ؟ " حقاً شعرت بالخجل لأننى لم أعد أملك هذا الشعور ، ربما كان السبب ذلك الفراغ الهائل فى قلبى والذى جعلنى أرحل بعيداً للعثور عليه ، إحساس الذنب هذا الذى أيقظه فى حسن جعلنى أكتب عدة رسائل أخذها هو إلى دائرة البريد التى تقع خارج المدينة والتى لم أغادرها منذ وصولى إليها .

سردت تفاصيل رحلتى فى تلك الرسالتين وأخبرتهم عن مكان إقامتى الحالية وما أفعله الآن لكننى لم أذكر لهم شيئاً عن الأذى الذى لحق بى ، بشكل مبسط يخلو من الإسهاب وضمنت الرسالة تفاصيل تعلمى بشكل غير مفصل ومبسط وحين استلمت الجواب من باريس وميرلاند لم أعد أشعر بفارق الوقت بين كتابتى للرسائل واستلامى الرد ، ولأننى لا أؤرخ رسائلنى فقد تمكنت من معرفة طول الفترة التى قضيتها هنا بقراءتى لرسائلهم . لقد أمضيت فى مراکش عامين كاملين ، حقاً أذهلتنى هذه المدة والتى تبدو أكبر من الخيال بعينه ، لم يحاول أحدهم حينما بقيت فى المدينة أن ينبهنى لمسألة الزمن هذه ، أو حتى كونى لم أفتقد أحداً ، فجأة أصابنى إحساس بالسخط على نفسى لتطفلى عليهم ونسيانى لأحبتى .

كيف حدث هذا دون أن أشعر بأى شىء ؟ كيف كان هذا الهروب من النفس مدة عامين ومن أولئك الذين لن يصدقوا وهم يعيشون بعيداً عنى الآن . ؟

عندما دخلت هذا العالم . . هل كنت قد أضعت الإحساس بالإنسانية ؟ هل

أصبحت رغبتى بالدخول إلى أعماق الفراغ نوعاً من انهماكى الشخصى لا أكثر . ؟

كانت رسائل أمى مليئة بتعابير الترويح بالرغم من خوفها بأنى قد مت ، حاولت إقناع نفسها بغير ذلك ، متذكرة رغبتى بالعزلة منذ طفولتى وإن كانت غريبة بعض الشيء .

لقد قامت برحلة مفاجئة إلى باريس للعثور على ذاهبة إلى آخر عنوان مكثت فيه والذي يقع فى شارع فيسكونتى ، ثم التقت بصاحب البنايه السيد " كيدون " الذى حاول طمأنتها حول عودتى وأخبرها بأنه ينوى الاحتفاظ بملكاتى القليلة لأطول مدة ممكنة بغرفتى ، وقال إننى من الذين سيقدرّون هذا التصرف المتسم " بالخلق الفرنسى " ، لكونى من ذوى الطباع المخلصة .

وظنت والدتى بأن هذا الرجل كان نادراً من نوعه لكنه محققاً باعتقاده ، ودفعت إيجار غرفتى المتواضع لأشهر قادمة ، كما استمرت بإرسال الشيكات إلى السيد " كيدون " بسبب تمسكها بالأمل .

أما الرسالة الثانية فكانت من إمراه من منطقة " بریتون " تدعى " كوين " والتي تكلمت معها باللغتين الفرنسية والإنكليزية عند وصولى إلى باريس حيث تصورت أنها أقرب إلى مما كانت عليه بالفعل ، وذكرت فى رسالتها بأنها كانت تعتقد أنى فى خطر فهى تبتهل لله لكى يحرسنى ، كانت هذه المرأة منغمسة بحملات مضادة للحرب الجزائرية والتي لم تحددها ، تمت لى الخير والعافية ، لقد كان قلق الطيور صدى آخر لتوترى . . لم

أتذكر شيئاً من ملامحهم غير شكل مبهم مما زاد من هذا التوتر . . لقد هزلت كثيراً عما كنتُ عليه في باريس أى في العامين اللذين قضيتهما في مراکش إلى حد جعلنى أرى أضلعى في مرآة الغرفة التى كنت أستحم فيها وأن أفخاذى وساقى ويدي قد هزلت هي الأخرى بشكل ملحوظ ، أما جلد وجهى فقد بدا مشدوداً مما جعل عيني تبدو كأنها أكثر عمقاً من الحقيقة . كان حبيب يقص لى شعري ويحلق ذقنى بين حين وآخر مستخدماً مقصاً وشفرة حلاقة ، فيما كان يلومنى أحياناً لعدم إكمانى إكمال وجبة الطعام التى يجلبها لى .

كنا نردد سورة قرآنية كيغاوين تجمعهما روح واحدة تماماً مثل المتصوفين الذين يسعون للوصول إلى حالة روحانية توحدهم وتقربهم من الله .

بعد ذلك ضحكتُ ونسيت هموم الآخر .

بالرغم من الهزال الذى أصابنى لم أكن أشعر بالضعف ، حيث كنت قادراً على السير ساعات . . ومن يدرى فربما أميالٍ أو لمسافات أميال دون الشعور بالإرهاق والتعب .

لقد لآمنى حبيب بسبب بقائى وحيداً فترة طويلة قائلاً لى :
" أنت منعزلٌ أكثر من الحد المعقول ، كذلك هذا الهزال . . وعدم ممارستك القدر الكافى من الرياضة كما يجب أن يفعله الرجل "
هذا الكلام جعلنى أغوص فى الزمن .

الجزء الثالث

ذات صباح أثار حسن دهشتي حينما سألتني وبفضول شديد عن سبب مجيئي هنا إن لم أكن سائحاً أو طالباً !! " ألم تكن تشعر بالفرح في منزلك ؟ " .. أزعجتني كلمة " الفرح " فأجبته " كنت أريد الرحيل بعيداً " .. ترك على وجهه هذا الجواب ملامح العبوس والحيرة وضحكة خجلة تفصح عن جهله بما قلته .. لكنني لم أشأ أن يحدث ذلك بيننا ، حينما بقيت وحدي شعرت بعزلة مجهولة لم أحس بها منذ مجيئي إلى هذا المكان .

كانت حياتي خلال السنتين الماضيتين كستارة مضيئة علقت أمام مسرح باهت وضعت بداخله عربة صغيرة صدئة وإلى جانبها قطع من الأثاث تنتظر أن تحشر فيها .

إنه المسرح الذي وددت الهروب منه دون أن تلاحقني ذكرياته ورحلت ثانية أرفع قطع الأثاث واحدة فواحدة إلى العربة . الصندوق الصغير ذو الجرار المصنوع من الخشب (المهوركاني) الخفيف ، الكرسي الهزاز ذو الذراعين المكسوتين بقماش المخمل الأخضر الباهت اللون ومسنده الملىء بالبقع ، ومصباح القراءة المصنوع من الخزف الصيني الأزرق ومنضدة الشطرنج . تمثال هوميروس البرونزي .

" خذ حذرک . خذ حذرک " . " لاتکسر ولا تنسَ أى شىء " ، هكذا
كانت صیحات أمى

وفجأة أبصرتها تصعد على سطح العربى ، تتفحص محتوياتها ثم
ناولتنى صندوقاً صغيراً مربوطاً يحتوى أشياء عديدة : غليونات قديمة ،
مشابك لربطات العنق ، ساعة مكسورة ، ثم حدثتنى قائلة : ضع هذه
الأشياء فى الكابينة ، إنها أشياء أبیک التى طالما كان شديد الحفاظ عليها ،
وحین تراجعْتُ وأكدتُ لها بأنى سأفعل ماتريد . . لفظنا معا كلمة
" وبسلام " . . عندها ضحكت أمى ثم بكت فجأة . . حدثت فيها دون
حرك بعدها حيث عادت إلى الشىء الذى اعتادت علیه دائماً . . البكاء ،
أمسكت بها محاولاً تهدئتها كما كنت أفعل ذلك على الدوام ، وفى نهاية
المطاف تسمرتُ دون حراك ، كنت فقط أحرق بوجل دون برود ، كنا
ندرك نحن الاثنين من أننا لانملك ما نهبه لبعضنا فكل شىء كانت تفوح
منه رائحة الماضى الذى غاب ، فى الوقت الذى لم يكن قد بقى شىء لمن
رحل ، أعنى للموتى الذين كانوا من قبل قابضين على تلك الأشياء ، كان
انشدادنا أشبه ما يكون معروفاً أو محصوراً بهذا الإرث .

حدثت بأمى وهى تصرخ . . فعلان كانا بمثابة " حدس " متبادل بين
كل واحد أراد التخلص من الآخر لكى تبدأ حياة جديدة ، ثم بعد ذلك
اختفى هذا المشهد وكأنه ستارة ملونة أخرى حينما كشف عن نفسه ، كنا
مايقارب الثلاثة شاخصين على المسرح ، أنا ، أمى وشقيقتى ، أطبق حولنا
هذا الفراغ حتى اجتاحتنا المطر الخفيف والضباب محاولاً امتصاص وجعنا
كأرواح " كامى " الأسطورية اليابانية التى تنهش أحلام البشر . تلاشت

الأشجار تحت وطأة طبقات الضباب ثم امتدت نحونا أغصان أشجار الأرض والصنوبر لتلامس أجسادنا ، كل ذلك حدث فى منتصف آب وتعرق النهر حباته من مسامات سواحله ، وماكنا نتوقع المطر فى ذلك الوقت ، ابتعدت شقيقتى عنا فى الحال وكأنها روح قلقة جاءت مستأذنة من زوجها وحياتها الجديدة ، كان طالعتها ينبىء عن حزنها الذى بدا أقل مما كان عليه وهى فى ربيع سن الرابعة والعشرين ، كانت تنظر للأمام فيما كنت أنا لا أزال فى التاسعة عشر وأمنا لم تتجاوز السابعة والأربعين من العمر، أما أبانا فقد رحل عن عمر يناهز الرابعة والخمسين أثر حادث سيارة أدت إلى أصابته بنزيف دماغى راح ضحيته . ثم غاب أبى ليغادر المشهد ، كان موجعاً حقاً أن نتخيل موته ، فقد ملأ حياتنا بالحنان والمسرة ، لذا فإن الألم يجتاحنا حينما نحاول وصفه . . كان طويلاً رقيقاً يرتدى نظارته ، اعتاد أن يحلق ذقنه كل صباح ، لقد شاب قبل أوانه أما عيناه فقد غارتا عميقاً فى محاجرهما ، له ذراعان طويلان وكتفان كبيران وقويان ، كان يدخن الغليون ويسترخى فى قاربه على الساحل الساكن ليصطاد السمك أو ليصلح الماكنة دون إتقان ، محاولاً تجميع الحافة العلوية للمركب منعاً للغرق ، محتسباً شيئاً من الكحول مازجاً الويسكى بالماء وأوراق النعناع فى بعض الأماسى كذلك النبيذ الذى كان يحتسيه مع العشاء ، كان يجهد نفسه فى عمله ، لقد أحبه كل من عمل معه مثلما أحبه عائلته ، فهل استطاع كل ذلك أن يدرأ الموت عنه ؟ ، كانت سطوة هيبتة تقف حائلاً بينى وبين الحديث عنه ، كنت أدرك من خلال طوفان دموع أمى من أنه لن يغادر ذاكرتها أبداً بل كان حاضراً طول الوقت فى جميع تفاصيل حياتها ، وددت

مغادرة هذا المسرح كى أضع حداً لهذا الحزن ، لأن الحزن كان كالمرآة التى تعكس الهموم التى خلفها بعده ، لقد أخفى عن والدتى تفاصيل حياته لأنه كان يضع حاجزاً بينها وبينه ، لم يكن يملك سوى راتبه الشهرى ، فقد حصل على استثمار بسيط من مدخراته وباع وثيقة التأمين على الحياة ليدفع بها ديونه القديمة ، ثم مُنحَ تأميناً صحياً بائساً ولم يكن فى مخيلتى أنه حينما يتقاعد فإن الديون سوف تتراكم بعضها فوق البعض بما فيها القروض الكثيرة . ومن جرّاء كل ذلك حُجز المنزل كرهن عقار لرجل رحل عن زوجته التى لم يشأ لها أن تعمل فى الوقت التى كانت تنقصها الخبرة لإتقان أى عمل . . لم يترك لها سوى هذا الحب .

لماذا رحلت بعيداً ، هل لأترك نفسى للضياع أم لأبحث عن حياة بديلة ؟! . . طراز آخر من الحياة يمنحنى شيئاً مغايراً لليأس والأوهام والجهل كذلك الحب العاطل ، كنت أبحث عن نوع آخر يقودنى بعيداً عن الإرباك أو جمع الأثاث القديم ، جرنى الوقت إلى الماضى مرة أخرى تحت وطأة جميع تفاصيل الحياة التى عشتها فى المدينة كى تموت أو تبعد على الأقل ذكريات الماضى الأليم . ثم عاد تدفق سيل الذكريات ليخنقنى من جديد وغاص كل شىء ، عدا الحزن الذى لفنى منطلقاً فى البعيد ، هناك وعلى الساحل حينما وقفت أُمى حيث الغسق الذى لف هذا العالم ، جلست على حافة الظلة التى انتصبت فى الباب محدقاً فى النهر منتظراً غروب الشمس . وفجأة أطلقت أُمى صرختها نحو النهر جعلتنى أقفز من مكانى لأنها كانت صرخة لاتشبه أبداً صراخ الآخرين . . لم تكن عواءً أو عويلاً أو أنيناً لكنها رجع صدى لصرخة مكتومة مدة طويلة كانت واهية

وكأنها صراخ الحيوانات حينما تحاول الاقتراب من بعضها. كانت تلك الصرخة تحذيراً أو ترحيباً راقبتها وهي تعيدها مرات عدة مثل شفق يتهاوى أو غروب شمس غير مرئي وهو يجز أذياله القرمزية وخمار عطر الخزامى بعيداً إلى النهر نائياً عنا.

ذهبنا مساءً إلى غرفة الجلوس والتي كانت فارغة وتبدو أكثر اتساعاً مع قطع الأثاث الصغيرة ، ثم تساءلت ، " ما نفع أشياءه الموجوده فى المخزن ؟ " فأجابتنى " أنت تعرف دون الحاجة إلى التساؤل "

" لكنى لا أعرف " قلت لها

" لتحفظها إذا ماضعت الأشياء الأخرى "

" لكن قولى لى ، ماذا عن أشياءنا نحن .. هل أنها ليست بذات قيمة ؟ "

وركضت بعد ذلك مطلقاً صرختى باتجاه النهر ثم غمر الماء خصرى ، نظرت شمالاً و يميناً فى هذا الظلام ضارباً الماء الدافىء بكلتا قبضتى ، بعدها حاولت تحريك الماء حولى وجعله صافياً محيطاً نفسى بمكان شبه منعزل وخالٍ .

ركضت مسرعة خلفى صوب الشاطئ وهى تصرخ مرة أخرى ، منادية إياى بإسم والدى

" توم : هل أنت بخير ؟ "

قلتُ " كلا .. لست على مايرام "

كان الوحل من أعماق النهر قد غطى نعلى ولف سروالى القصير ، كذلك كاحلى ، ثم جلست أخلع حذائى وجواربى فوبختنى قائلةً " لا

يبنى التصرف بحماقة كما فعلت الآن " أيقظتها غرابة تصرفى من جرّاء
صرختها غير المألوفة .. قائلاً لها " أنا مجنون "

" آه .. لقد أفرعتنى "

ثم قلت لها " أنت سببت لى الذعر "

فأجابت ببساطة " لم أكن أفهم ما يحدث " .

كان الظلام قد حل ولم نتبين بعضنا البعض رغم أننا كنا نجلس
متقاربين على الرمال .

فأردفت تقول " ربما رغبَ والدك بالموت "

وكانها تريد الانفصال عن نفسها ، ثم أجبتها بالنفى وكأننى أصر على
رأى ووافقتنى على ذلك قائلةً " أنت على حق .. لا أحد يريد الموت ،
يجب أن تعدنى بعدم التفكير بذلك مهما يكن الأمر .

لم أنطق بأية كلمة .

" اعطنى وعداً فى هذا المكان "

فهمست لها " أنا أعدك "

.. لم أكن أعنى ما تحدثت به أو ما الحالة التى كانت فيها .

فى حقيقة الأمر كنت فى غياب الوعى .. من أنا ؟ .. لا أعرف
كذلك من أكون ؟ أعتقد أننى بدأت أومن الآن ومن هذا الفضاء الذى
يلف الساحل بالرحيل بعيداً لكى أهرب من الهمس الذى تفوهت به أمامها
.. «أنا لا أود تصديق اختياره تركنا ، هكذا وبشكل شتى أكثر مما كنت
أنا فيه» .

عدت أتذكر الأشياء التى فعلناها سوية أنا ووالدى فيما يخص الزورق . كالترميمات البسيطة وتصليح الكدمات والصدع القديم ، كنا نصبغه بعد القيام بترميمه كما نحاول تصليح أحد المطورات الذى حصلنا عليه من إحدى سياراتنا القديمة .

كان أبى يميل إلى هذه الأعمال فى أوقات مختلفة كالمساء المبكر وخلال عطلة نهاية الأسبوع كمحاولة للخلاص من التوتر الناجم عن العمل حيث أن تلك الأشياء جعلتنى أعتقد فى ذلك الوقت وحتى الآن أنه لم يكن ينوى الرحيل وعلاوة على ذلك كان هو والدتى ينهضان مبكرين صبيحة أيام الأحد فى الربيع أو فى بداية الصيف ليمارسا هواية مراقبة الطيور ثم كانا يذهبان معاً إلى الغابات التى كانت تغطى أرضنا ما عدا الجزء الساحلى والمنطقة التى كانت تحيط بدارنا ودار الضيافة والممرات ، كذلك الشوارع التى توصل إلى البيت ومرآب السيارة . كان يخبرنا بأنه اشترى الأرض بسعر باهظ جداً لتكون ملاذاً له ولعائلته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وقد قرر الانتقال هناك فيما بعد ، وبشكل دائم ليجعل منها بيتنا الثابت . كان يفضل الخلوة كذلك المسافة الطويلة التى كان يقطعها ليصل

العمل والحياة فى منطقة مواصلات عامة . لقد فاقت رغباته قدرته المادية أو هكذا كان يبدو ، لكنه منحنا حياةً مليئةً بالطيور والحيوانات والنهر ومتسعا بدون حدود من الخضرة والشجر .

فمن غير المعقول أن يكون قد رغب بالرحيل وعلى ما يبدو كنا نحن الذين نرغب بالذهاب معه إلى أى مكان .

لقد علمنى الشجاعة دون الخوف ، ولكن على الحذر من الأفاعى الموجودة فى أرضنا أو تلك الموجودة فى الأرض المشتركة القريبة من هذا النهر .

حين كنت فى سن الثانية عشرة سنة أذكر أنه التقط ثعباناً طويلاً أسود اللون كان قد زحف ووصل إلى حديقة الدار الأمامية ، وجدناه نائماً بالقرب من الباحة فننادانى حيث كنت موجوداً قرب الزورق وأنا أحاول تقليده بتصليح الماكينة . . أصر أن يعلمنى كيفية التعامل مع الأفاعى . . كنت أرتجف وعلى وشك البكاء لكنه وضع يدى اليسرى تحت يده خلف رأس الأفعى ويذى اليمنى تحت ذنبها ثم تركها لتتحرك بحرية . . وفجأة لدغت ظهر يذى اليسرى . . فتركها تهرب وهى تتلوى لتخلص من قبضتى التى نزفت من أثر عضتها لى ، بعد ذلك ، علق والدى قائلاً لى " كان عليك أن تحكم قبضتك عليها " لكن أمى كانت ترتجف وهى تطالع ما يجرى عند وقوفها قرب الظلة وأرادت بعد ذلك أن تأخذنى بسرعة إلى منزل الدكتور ولسن القريب من قرية هارمونى ثم راح أبى يحاول طمأنتى بأن تلك الأفعى ليست سامة ، بعدها دخل المنزل متناولاً غليونه .

تعبت الأفعى وهى تسحب نفسها باتجاه الممر المعشوشب الذى يقع
صوب مرآب السيارة والغابات .

حينما حملت يدى التى خُيِّل لى وكأنها فصلت عن جسدى أو كدت
أفقد الإحساس بها وأنا واثق من كلام أبى الذى أدركتُ من خلاله جرأتى
لما أخفيت ذعري دون أن أنبس بكلمة ، فى الحقيقة . . . كان يبالغ كثيراً
لأنى فعلاً كنت مملوءاً بالرعب .

وتابع حديثه 'هناك نوع من الأفاعى السامة فى الشاطئ الشرقى
يسمى - كوبرا هيدس - وهى أفعى مائية سامة ، أما الأنواع الأخرى فلا
تسبب أى خوف' ، لوح لى وأرانى كلا النوعين اللذين ضمهما كتاب
صغير عن الزواحف كان يحتفظ به فى مكتبته جوار الكتب الأخرى التى
تتحدث عن الطيور كذلك منظاراً مكبراً وعديداً من السلايدات التى ضمت
صوراً مختلفة .

حاولت أن أحفظ أشكال رؤوسها وتصاميم جلودها ولكنى نسيت كل
ذلك فى الحال وأصبحت حذراً من كل الأفاعى ولم أتذكر أنى قد رأيت
أفعى سامة فى منطقة ميرلاند خلال تلك السنوات كذلك لم أحاول
الإمساك بأية واحدة ودهشت لهدوئه . . . ربما كان يتصنع ذلك أو ربما
كانت تلك هى العادة التى جُبِلَ عليها . كان يبدو عليه حب البقاء فى المنزل
مع أشياءه الخاصة وتلك الكائنات والناس الذين يزورونه وبالأخص أخوه
'أليكسى' الذى يأتى بين الحين والآخر ويبقى بعض الوقت معنا .

التقينا ببائع السمك الملتحى بملابس عمله التقليدية بعد أن أوقف

محرك قاربه الذى انساب صوب الشاطى متجهاً نحونا ، كان ذلك فى إحدى أماسى السبت ، فقد جاء يحمل صيد اليوم من سمك كان كالحجر تفحصه والذى ثم اشترى اثنتين للعشاء . استحضرت والذى وهو يرافق " أوتو " الذى كان يملك معمل النشارة فى أعلى النهر وقد كان يساعد والذى فى بناء وإصلاح مرآب العربات بعد الأضرار التى لحقت به من جرأء العاصفة . غالباً ما يرتدى هؤلاء الذين يعيشون على امتداد النهر ملابس العمل الموحدة وقد لوحت الشمس أجسادهم ويغض النظر عن كونهم يعملون خلال أيام الأسبوع أم فى نهايته . . استحضرت والذى الذى كان يرتدى الزى نفسه أيام العطل كما كان يرتدى ثياباً حمراء أو خضراء وبعد أن يلف كمى قميصه حتى مرفقيه كصياد السمك .

كذلك جورج مزارع الحبوب والذى كان يمتلك الدجاج والخنازير والدواجن ويسمح لشقيقتى بامتطاء حصانه " سام " الكبير . . الكسول .

أما الحقول فقد كانت مخصصة لزراعة الرقى التى يجلبها الرجل الأسود أحياناً كهدايا وهو يرتدى زى العمل أيضاً .

وحينما كانت أمى تهم بالذهاب إلى مدينة " ديتون " لتزور أصدقائها الذين نادراً ما كنت أراهم ولوقت قصير ، عندما كانت تأخذنى وأياها ونحن نجوب مخازن الألبسة الجاهزة والأقمشة وهى متاجر لبيع السلع الرخيصة . كان يروق لها ارتداء الملابس المزدانة بالورود ، وفى بعض الأحيان كانت تدس وردة فى شعرها الأحمر فوق أذنها اليسرى ، وغالباً ماتكون هذه الزهرة إما برية أو إحدى الزهور التى عنت بزراعتها فى جميع أرجاء المنزل .

أما عمى الذى كان كثير الشبه بوالدى الذى يصغره بعامين فقد بقى اعزباً يعيش فى مدينة نيويورك فى شقة غريبة بألوانها المتعددة ، كان كثير الهوس باقتناء اللوحات والتماثيل وأشرطة موسيقى الأوبرا ، كان سمسار عملة ، عاشقاً للسفر من وقت لآخر وكنا نحن الذين نمثل له هذا الهروب . الشارب كان الفارق الوحيد بينه وبين أبى ، حيث الأخير يبقى عليه أما عمى فقد كان يحلقه ولا يتركه يمتد إلا فى العطل التى تمتد طيلة شهر آب . كان يعشق العم " أليكسى " ركوب القارب والجلوس على الكرسي المصنوع من الجنفاص ، بجوار أمى عند المؤخرة بينما كان أبى يدير القارب بمساعدتى ومساعدة شقيقتى .

أتذكر ملابسه التى غالباً ماكانت سرزلاً من الكتان الأبيض وقميصاً قصير الكمين بلون أبيض وأزرق زاهٍ له فتحة فى العنق ، وحذاء أبيض أشبه بالموكاسان ، كان يفضى بضحكته المرحّة كلما اصطدنا سمكة . حتى عندما يلقي اليه أبى بسمكة اصطادها ، فإنه يتصرف كأخ كبير اعتاد أن يكون هو الأول . كان يغدق علينا هداياه التى يجلبها من نيويورك والتى كانت فى الغالب ألعاباً نستمتع بها فى الماء . عند اختفاء المساء كان يغط فى نومه وهو ملقى على كرسي يتوسط الممر المعشوشب تحت ظلة كبيرة من القش وإلى جانبه كأس من الشراب وضع فوق منضدة مصنوعة من الخوص .

كنت أكن له الحب بالرغم من أنه لم يكن يبادلنى الشعور ذاته ، ثم أننا كنا نلاحظ اختلاف نمط حياته عنا حين نقوم بزيارته فى نيويورك ، كان ذلك يتيح لنا السفر بعيداً وذلك ما كنت أهواه حقاً . بعد فترة عامين من وفاة أبى واستقرارى فى فرنسا أخبر أمى كما كتبت لى بعد ذلك ، بأنه

قام باستثمار الإرث حسب وصية أبى والذى سيساعد فى الحيلولة دون بيع المنزل حيث أبقى لها بعض المال ليعينها على هذا الأمر ، لم أكن أدرك ما إذا كان هذا الأمر حقيقياً أم أنه كان دعماً مالياً تولّى تقديمه هو .

فإذا كان الأمر كذلك لماذا لم يخبرنا بهذه الوصية من قبل أن نواجه هذا العوز والألم فى تكديس حاجيات والذى بعضها فوق البعض الآخر فى المخزن !!! كانت هذه إحدى حماقات الكبار التى لم أفهمها . . فى نهاية المطاف أردت الهرب من كل ذلك ولكل هذه الأسباب اعتمدت بى الرغبة فى الاختفاء أو ربما لأسباب أخرى معروفة أو مجهولة ، حقيقة أم عكس ذلك خاصة بى والتى لم يكن لها علاقة بوضع عائلتى المادى الحقيقى والمعروف .

لم يكن والدى رجلاً معدماً ، بالرغم من أننى لازلتُ أتساءل عما إذا كان فكر بذلك . إن الحقيقة كما بدت لى هى جزء من لعبة صغيره مارسها هو وجاء أخوه وهو ينوى كشف ما تبقى من تفاصيل اللعبة بعد موته الذى لم يكن يتمناه أبداً ، أو ربما مات حقاً بحادثه غير متوقعة أثناء قيادته للسيارة ومهما يكن من الأمر فقد أخفى ظروف حياته تاركاً أرملته وأطفاله يبحثون عن الحقيقة والأمان الذى افتقدوه .

مع كل معلومة أستطيع الحصول عليها كنت أحاول النسيان دون أن أغفر ، لقد أجبرتنا أسرار وأسرار أخيه أن ننفصل الواحد عن الآخر فى جو من الارتياح والقدر المشؤوم .

فى الأيام التالية وبعد سؤال حسن عن سبب قدومى إلى مراكش ،
أصابنى شيطان اثنان حيث بدأت أتذكر أبى دون شعورى بالغضب كذلك
المشاعر الغريبة التى بدأتُ أشعر بها نحو فتاة شابة كنت قد عرفتُها للتو . .
حيث لم تمضِ مدة طويلة على قراءتى لقصيدة يابانية فى كتاب روايات
"أقاصيص آيس" الذى كان يعبر بدهشة عن مشاعرى فى تلك الفترة التى
عشتها فى مراكش . كان محور القصيدة يدور حول رجل وقع فريسة
الحب وهاجر من مكان لآخر بحثاً عن الحبيبة التى لم يعثر عليها أبداً ولم
يتمكن من إيصال رسالته اليها . . :

كم من المرات

أبحر الزورق الصغير بين القصب

وهو يجىء ويذهب

دون أن يعرفه أحد

تذكرت تجربتى عندما كنت فى الثالثة عشر من عمري ، مع تلك
الافعى السوداء التى لدغتنى ودون أدنى شك ، كانت الواقعة تخصنى

وحدى لكن شبح والدى مثل أمامى محاوراً إياى حتى أنسانى - فى حقيقة الأمر - نسيتُ قاربى أى نسيت حياتى التى اختلفت تماماً عن حياة أبى ، فى أحد تلك الأيام التى ذهبت شقيقتى وهى تقود دراجتها إلى بيت جورج (بائع السمك) لتمتطى حصانه " سام " ، والداى اللذان كانا مشغولين بمشاهدة الطيور . فانطلقتُ وحدى فى قاربى .

لقد تعلمت من والدى أشياء كثيرة عن التجديف ومواجهة التيارات التى قد تشكل خطراً علىّ ، لقد منحنى الثقة عندما جعلنى أشعر بقدرتى على قيادة القارب بمفردى والتى من خلالها اكتشفتُ أماكن جديدة لم أكن أعرفها من قبل ، كذلك إدراكى لخطورة التيارات .

جعلت القارب يقف قرب الساحل الرملى وبدأت أجذف أسفل النهر وبحركة بطيئة نحو المنتصف حيث كان الماء عميقاً والتيارات سريعة جداً . . استدرت خلفى إلى الساحل حيث بيتنا بمداخنه العالية والظلة التى تضاءلت طويلاً أما أعينى . . مررت بطائر غرنوق . . وهو حيوان صغير من فصيلة البط الكركرى . . كان يقف بساق واحدة على الشاطئ ، كذلك كانت قد استلقت نائمة إحدى أفاعى الماء المسنة على جذع إحدى الأشجار وهى تنام .

لم يشعر أياً منهما برغبة الهروب خوفاً عندما مررت بالقرب منهما ، كان قاربى يتميل بسرعة وهدوء ولم يزعجهما . أدريت رأسى باتجاهين مختلفين لأعرف وجهتى . . ومنها أحسست بأن التيار بدأ يجرفنى سريعاً من جانب النهر وبعد وقت قصير توقفت عن الجذف منتقلاً إلى مؤخرة القارب مستخدماً أحد المجدافين كدفة لأقود وأوازن القارب باتجاه ضفة

مغطاة بالقصب الطويل .

وأخيراً توقف قاربى فجأة وسط كومة من القصب وبقيت فيها حتى استقر . . لأدرك بعدها أنني ابتعدت كثيراً كما لم أفعل من قبل .

لم أبتعد عن بيتنا كما حدث الآن إلا فى قارب يدفعه محرك عندما كنت مع عائلتى . . فكرت بأبى وأمى وهما يسيران وسط الغابة ثم يقفان دون حراك يربضان على الأرض كى لا يزعجا خلوة الطيور ، فكرت بشقيقتى وحصانها وهما يتجولان فى مسالك جديدة ويقفا ليشربا من ماء الساقية حيث ينمو القصب ، دفعت بقاربى على امتداده حتى وصلت لفضاء يطل على فوهة النهر الصغير ، دفعت بأحد مجدافى إلى أعماق الماء كى أتفحص عمق النهر ، لكنى لم أفلح فى ذلك ، كان النهر الجديد يبدو هادئاً على السطح كما لو كانت أمواجه بلا حراك عدا حركة متململة عند فمه حيث يلتقى النهران ، نهر الجوتانك والنهر الجديد الذى أطلقت عليه ببساطة اسم (النهر المار بالقصب) ، كان يسيراً على أن أجذف وأتبع مسار النهر المتعرج ، متفحصاً أحياناً القصب المحيط بى الممتد على جهتى القارب حيث أبحر ، كان النهر الجديد يبدو هادئاً على السطح إلى حد جعلنى أنصت إلى خفقات قلبى رغم أننى لم أكن أعرف كم أمضيت من الوقت مجذفاً وسط القصب ، لكنه وقت طويل بالتأكيد وشعرت بجهد (انصب فى ذراعى) أدت رأسى وأبصرت على بعد سطح سفينة خشبية صغيرة تطل بين القصب ، حاولت أن أبطئ من مسير القارب ، وعلى مقربة منه أسندت رأسى إلى أعمدته الرمادية الملساء ، تاركاً ذراعى يأخذان قسطاً من الراحة ، وقفت أنصت إلى تغريد الطيور ، وعدت بالذاكرة حيث أمى

وأبى وهما يحملان منظاريهما ، كانا يبدوان بعيدين جداً ، كأنهما فى بلاد أخرى . . شعرت بالوحدة والخوف .

التجأت فجأة إلى مكان موحش وبعد أن استعدت أنفاسى ، شعرت بالراحة التى منحتنى إياها هداة الماء والقصب . ربطت قاربى بأحد الأعمدة وانتقلت إلى الألواح الرمادية فى السفينه ، كان المكان مرتفعاً وتمكنت من رؤية مافوق حافات القصب ، حيث الطرق المؤدية إلى منزل وبستان من الصنوبر العالى ، وتساءلت . . من يعيش هنا وودت معرفة ذلك وسرت على امتداد العشب حتى وصلت إلى فضاء بين القصب وأشجار الصنوبر حيث شاهدت منزلاً صغيراً بنى بالآجر وفى بابه كانت تقف سيدة بدينة مسنة مرتدية فستاناً منقوشاً بالورد الأحمر والأصفر الشاحب ، ومنديل كبير لف شعرها الأبيض ، عدت إلى نهاية القصب محدقاً فيها بشيء من الدهول لكنها رفعت يدها ملوحة لى داعية إياى للمجئ . . ترددت ثم لوححت بيدى أنا أيضاً ، فكررت الدعوة حيث الباحة الخلفية للمنزل مكان زوجها والذى تحدث معى فيما بعد ، تساءلت عن كيفية معرفة رغبته بالتحدث معى ، إن الكبار يصلون إلى الحقيقة بحدسهم ، قفزت إلى ذهنى صورة جدتى لأمى التى رحلت ، تذكرت عادتى بالجلوس فى بهو حضنها الكبير والإصغاء إليها فيما تقوم بقص ما تعرفه عن أبى عندما كان صغيراً كذلك أبيها عندما كانت هى طفلة أيضاً . كانا متشابهين ، الاثنان عنيذان ومستقلان ، ولا تستطيع التخمين بما يفكران به أو ما هو طالع السوء الذى سيتعرضان له فى المستقبل . كانت تعرف أشياء كثيرة . مشيت خلف المرأة المسنة وهى تتجول حول المنزل . . كانت تعدو بخطوات رشيقة

وحشرجاتها كانت تسمع أثناء المسير .

حينما عرفتني إلى زوجها ، لم أكن أصدق ما رأيتُ ، كان متديلاً رأساً على عقب فوق غصن شجرة بحركة ضم الذراعين فوق الصدر ، لم يكن مرتدياً غير سرواله القصير ، عارياً تماماً . كل شيء كان يلفه البياض ، شعره ، ذقنه ، شاربه ولحيته الصغيرة ، حاجباه . مغمضاً عينه فيما كانت تقول السيدة بولاند :

" هذا هو زوجي . . السيد بولاند . . ذكرت اسمه بصوت عالٍ وكأنها تحاول إيقاظه . " ما هو اسمك " . . سألتني . . " توماس سيبري " .

" وأنا السيدة بولاند " ، مائةً يدها لمصافحتي ، بادلتها التحية بخجل ، ضغطت كفى بقوة ، عند ذلك فتح الرجل عينه ماداً يده لمصافحتي . . بادلتها التحية ، كان حقاً شيئاً مثيراً للغرابة .

سألتني السيدة بولاند . . " من أين أتيت ؟ " كان صوتها عطوفاً ، حانياً يشبه صوت جدتي ، أجبتها مشيراً إلى مكان عبر النهر . . ثم قالت " أنت إذن تعيش في ذلك البيت حيث يلتقي نهري الجوتاناك والتاكهو " . . " نعم " فرحت لأنها تعرف سكناي ، " لم نعبر النهر منذ ما يقرب العامين بسبب عطل القارب وهو ملقى هناك كما ترى " ، أشارت إلى قارب صغير متروك خلف المنزل وفي قعره الأخضر الباهت ثقبان ، فتح السيد بولاند ذراعه

محددًا بصمت ، " هل وصلت إلى هذا المكان بمفردك ؟ " سألتني وعيناها مفتوحتان بفخر وكبرياء .

" نعم .. كنت وحدي " .. أجبتها بزهو حيث لم أفعل ذلك من قبل .. " هل أخافك شيء ؟ " لم أخبرها الحقيقة ، وأفزعتني زوجها بصوت عالٍ لا ينم عن شعور بالآلفة قائلاً لي .. " هل تخمن كم يبلغ عمري ؟ " وعادني الشعور بالخوف مرة أخرى .. أجبت به بخجلٍ " لا أعرف " " هلا حذرت ؟ " " نعم " .. أجبت مرتجفًا .. " لا تقف هناك محدقًا وقل ما تعرفه .. مائة ؟ " وقهقهه قهقهةً عاليةً مما جعل السيد بولاند يتأرجح إلى الأمام والخلف ، وشاركته زوجته نوبة الضحك هذه حتى تراقص فستانها الملون .. " أحزر مرة أخرى " .. أعاد عليّ السؤال بإصرار ، ورغم شعوري بالخرج والحماسة .. لم أفعل سوى مشاركتهم الضحك أيضاً وأنا أقول لهم بأنني لا أعرف ، " حاول (مائة وعشرون) حقاً لم أكن أجيد تقدير الأعمار الحقيقية لأناس أراهم أمامي ، أدركت فقط أنه طاعن في السن وكان هذا الرقم بمثابة مؤشر لعمره .

قال السيد بولاند .. " إذا كنت مصيباً فأنا أبلغ الخامسة والسبعين من العمر " .

أمسك وشاحاً كبيراً بكلتا يديه ثم أنزل جسده بعد أن لفه ثلاث مرات وقفز على الأرض . سألتني إذا كنت أعرف ما يحبذه من الطعام .. أجبت " لا أعرف " ، كنت معتاداً على التجديف والنظر إلى الطيور والزواحف والعناكب والأرانب (القوارض) هذا كل ما أعرف إذ ليست لدى الخبرة بالإجابة على تلك الأسئلة واستمر في حديثه قائلاً ، " أتناول الخضراوات

والفواكه والحبوب وقليل من البيض ، وأحيانا السمك ولا أتناول اللحم
كذلك سكر النبات الحلو وها أنت ترانى أتمتع بصحة جيدة ، فهل أنت
كذلك ؟ " نعم " .. قلتُ له .. رغم أن ضربات قلبى آخذةً بالازدياد
فى كل مرة حينما يحاول توجيه الأسئلة لى بانتظار الإجابة عليها.

هل يعرف والداك بعبورك النهر ، قاطعته زوجته .. «إنك حقاً
ترعب الصبى» .. «إننى أسأل فقط كى أحذره . فقد جاء من مكان بعيد
وسيقفل راجعاً بمفرده وهذه المرة سيكون عكس التيار » .. لم يكن والداى
يعرفان برحلتى هذه .. كانا مطمئنين أننى ألهو بقاربى فقط .

خرجنا لمراقبة الطيور بينما كانت شقيقتى " ألن " تمتطى صهوة الجواد
" سام " ، إنهما يثقان بك وبشقيقتك " ألن " أليس كذلك ؟ سألنى السيد
بولاند ، قالت زوجته .. نعم .. بالطبع يا "فرانك" .. قلت لهم نعم
دون أن أعرف سبب إلحاحهم واستغرابهم عبورى هذا النهر .

كنت مسروراً أن تقوم السيدة بولاند بالإجابة نيابة عنى وتمنيت لو أنها
كانت قريبة منى خلال فترة الدراسة التى أمقتها .

أثارت دهشتى هذه السيدة بسؤالها لى «هل تعرف كيف تجذف القارب
جيداً» وأجابها زوجها .. «بالطبع يجيد ذلك وإلا ما كان يتحدث إلينا الآن» .

لم أكن أفهم من كان يتحدث إلى الآن ، قالت لى وهى تنظرُ نحوى
بحنان ورقة كتلك التى كانت تغمرنى بها جدتى .. أجل سوف تعود إلى
دارك بسلام ، وأكد لى زوجها بأنه سيخبرنى عن ناى القصب ، قاطعته
زوجته طالبة منه عدم إثارة مخاوفى بهذه السخافات التى ربما ستثير دهشة

أهلى إذا ما سمعوها .. ثم تابع السيد بولاند بهدوء .. «ليست سخافات»
وأراهن أن أهله لم يسمعوا بها من قبل ، ولا حتى من هذا الصبى .

شعرت بالإرتباك وهو يضع ذراعه حول كتفى ويقودنى عائداً نحو
القارب ، كانت زوجته تتبعنا ، عندئذ لاحظت عاهته فقد كان أعرجاً .

حين وصلنا إلى مؤخرة السفينة وقفنا نحن الثلاثة متفحصين القارب
الذى كان يبدو صغيراً فى حجمه ملامساً الماء ، قال السيد بولاند متفحصاً
القصب بعينه السوداءين .. «دعنا نجد لك شيئاً يساعدك فى رحلة العودة»
وسألته زوجته .. «بماذا تفكر يا فرانك ؟ لا تملأ عقل الصبى بأفكارك
الغريبة .. أليس كذلك ؟» .

بدأت أشعر أن هذه السيدة لا تمنح تصرفات زوجها ولكنها تقدم له
اقتراحات لم يفكر بها قط .. حتى بت لا أفهم حقيقة الموقف . أجابها
السيد بولاند .. سأصنع له نايأ من القصب يساعده أثناء عودته لمنزله ..
فقاطعته بحرارة وبضحكتها التى جعلتنى أتخيلها ثانية وكأنها جدتى قائلة له
«الآن يا فرانك» .

قطع السيد فرانك قصبة طويلة وفتحها من الوسط ونفخ فى إحدى
نهاياتها ليزيل منها حشوتها اللحائية ، بعدها قام بقطعها بطول عشرة
إنجيات ممتدة على ثلاثة ثقبوب قام بفتحها بواسطة سكينه صغيرة أخرجها من
سرواله القصير ونفخ ثانية ولكنه سمع صغيراً واضحاً خلال هذه الآلة التى
تحولت إلى ناي صغير وحين ناولنى إياها طلب منى أن أحدث نفس النغمة
نفخت فى الآلة لكنى فشلت فى سماع هذا الصوت .. قال لى أنفخ بقوة

أكثر . . أطبق شفتك بحدة حول فتحة الناي . . حاولت ثانية وسمعت صوتاً يشبه حفيف أشجار الصنوبر في صباح باكر أو قبل هبوب العاصفة . . استحسّن بولاند مافعلته وقالت زوجته . . «جميل جداً» . . فرحت كثيراً بما فعلت ولكن دون أن أعى السبب ، ثم قام بعد ذلك بإسداء النصيح لى وبحدة عن كيفية تجديفى فى النهر الكبير بعد مغادرتى القناة المارة بالقصب وأن أبقى قريباً من القصب على جانبى النهر لأن التيار سيكون ضدى وهو قوى بالطبع . . أصغيت لكلماته بحذر لأنى استرجعت ما حدث لى عند وصولى عندما فقدت سيطرتى بالحفاظ على موازنة القارب، فقد كنت أقود القارب بمجداف واحد عبر القصب ثم أخبرنى السيد بولاند بأن أدفع بصبر ودقة . . وليكن طريقى إلى جانب القصب حتى وصول البيت عبر الجانب الآخر.

وعندما أصل قريباً من فوهة النهر " تاكهو " سوف أجذف خارج التيار ، أجذف ببطء إلى «حيث يلتقى النهران» ، ثم تابع، إذا أمسكت بالمجدافين بتوازن وثبات فسيُدفعك التيار إلى بيتك» وتساءلت السيدة بولاند فيما لو كنت قد أدركت ما حدثنى عنه السيد بولاند أجبتها «نعم» ، وأضافت السيدة بولاند . . إذا شعرت بتوعك وتوتر ونسيت ما يجب فعله فخذ هذه الآلة واعزف عليها كالرياح ، سيعود بعدها عليك هدوئك وتذكر ما ينبغى فعله . ستأخذك الأمواج كنسمة رقيقة وتحملك إلى مستقرك» ، ونادت زوجها مبتسمة . . لم أفهم ما الذى دار بينهما بعدها سألتنى إن كنت مستعداً للذهاب ، أجبته نعم ، بعدها صافحنى طالباً منى العوده يوماً ليخبرنى كيف أستطيع أن أقوم بمثل ماكان يقوم به عندما رأيته أول مرة

معلقاً نفسه رأساً على عقب متدلياً من الشجره . . ثم نظرت إليه زوجته فجأة نظرة استهجان حتى يكف عن التحدث بتلك الأمور، وطبعتهقبلاتها على جبينى وخدى وهمست فى أذنى (احذر) فأومأت بالإيجاب مؤكداً لها بأنى سأفعل ذلك وطلب منى زوجها عدم نسيان ذلك المزمار وأنا أقفز إلى قاربى وأجلس ممسكاً بالمجدافين . . فككت رباط القارب واندفعت لأنساب فى النهرباتجاه نهر الجوتبانك فيما بقيت أراقبهما وهما يقفان على منصة إرساء القارب الخشبية .

لوحى لى السيدة بولاند بيدها فيما ظل هو مطرقاً يبصره وكأنه لا يريد أن أسمع أية نصيحة أو لاحظ أى قلق وربما لسبب لا يتعلق بى على الإطلاق . لف ذراعه حول خصر زوجته وظل يتابعنى حتى وصلت المنحنى الأول فى القناة الضيقة . وضعت المجدافين ولوحى لهما مودعاً وحين وصلت فوهة النهر الذى اخترق قلب القصب . . صادفتنى مجموعة من البط الوحشى تنساب فى الماء على امتداد القصب لكن قاربى أفرعها ففرقت من حولى ضاربة أجنحتها باضطراب حتى تنثر ريشها فى الهواء ثم حط فوق قاربى ، تفحصت القصب فرأيت صغير البط واقفاً دون حراك ، لم يزعجه صوت المجدافين اللذين كانا يضربان الماء ، استمعت مرة أخرى إلى صوت السيدة بولاند . . «خذ جانب النهر واسحب قاربك على امتداد القصب» ، جذبت القارب فى النهر الكبير واستدرت بحدة على طول القصب ، شعرت بالأمواج وهى تسحبني قريباً من الشاطئ لتسجه نحوى ، أمسكت بحفنة من القصب وأنا أجر أنفاسى ، كان نبضى يزداد بسرعه دون سماع ضرباته لأن الريح كانت تعوى من حولى ، بدأت أسحب

قاربى قرب القصب ، حزمة فحزمة حيث كان أبى قد أخبرنى بعدم الوقوف على حافة القارب لكنى لا أستطيع أن أصل القصب وأنا جالس لذلك تحركت إلى الأمام وأسرعت عبر القارب كى أستطيع وصول القصب وتحريك القارب فى اتجاه معاكس للتيار ، كان حقاً عملاً شاقاً استغرق زمناً طويلاً وأنا أحرك يدى متنقلاً من حزمة إلى أخرى من القصب . ثم سمعت صوت السيد بولاند وهو يقول لى «ليكن طريقك أعلى النهر حتى تصل البيت» .

ونظرت صوب الزمار الذى كان ملقى على المقعد الذى يتوسط بينى وبين قبضتى المجذافين المشتبكين وتسلمت عائداً إلى كرسى القيادة واضعاً الزمار بين شفتى وضغطت على فوهته نافخاً بأقصى قوتى ، سمعت صفيراً كصفير الرياح العالى ونفخت ثانية ممسكاً بالزمار بين فكى وأنا أجذف بعيداً عن التيار ، كان حقاً أشبه بموسيقى لم أسمعها من قبل ، وعندما تحركت صوب المقعد فى مؤخرة القارب وبدأت أقوده بمجداف مدفوع بذراع الدفة فى المركب وشعرت بأن التيارات تحملنى بعيداً عن المجرى الرئيسى حيث يلتقى النهران ويكون الماء عميقاً غامقاً شديداً الكثافة ، نفخت الزمار وكأنى أفقد سيطرتى على القارب لكن صوته منحنى الهدوء تماماً كما أخبرتنى السیده بولاند من قبل حيث أقود القارب عبر النهر مستغلاً قوة التيار فى دفعه لى وكأنى كنت أعمل بذراعى أبى .

كتلك المرة التى هويت فيها من الشجرة وكسر مفصل ساقى فحملنى والدى إلى المنزل وخفف الألم قليلاً . لكنها كانت ذراعى والصوت صوت مزمارى .

تحرك قاربى مثل النسيم العليل أمام التيارات العاتية ، «سيحملك حيث تريد» ، كانت هذه صدى كلمات السيد بولاند .

استدرت محدقاً فى الشاطئ الآخر فتخيلت والدى وهما يجلسان على درجات الظلة ، كنت قريباً حيث أبصرت باقة من الأزهار البرية فى حضن أمى ، كانا ينظران إلى برفق وأنا أتسلل ثانية إلى الأمام حيث المقعد الوسطى . . قفزت من القارب فوق الرمال حيث كان أبى يمر باتجاه الممر الأخضر ، كنت كالمدعور وأنا أنصت لدقات قلبى ، ثم صاح أبى فجأة «هل أستطيع مساعدتك فى سحب القارب إلى الساحل» ؟ أجبته «نعم» .

كان الارتعاش يغلب على صوتى ، فوضعت المجذافين تحت المقاعد داخل القارب وربطته إلى جدار الكونكريت كما كنت أفعل دائماً ، ثم أمسكت القارب بقوة ونظرت إلى أبى الذى قال لى . . " كنت تقود القارب بشكل حسن " . . وربت على كتفى ثم سار إلى الظلة حيث والدتى التى كانت تتفحص مجموعة من صور الطيور لتطلعنى عليها، شعرت بحضورها مرة أخرى فى المدينة . . كان أبى يلمس كتفى بينما كانت هى تحمل صورها . هاهو الأمس قد عاد إلى مثل لحظة عاشت معى كل الوقت وتناهى إلى مسمعى صوت السيد بولاند وهو يقول لى . . «عندما تكبر وتزداد طولاً حينئذ سأريك كيف تعلق جسدك من رأسك حتى قدميك»

تذكرت تلك اللحظة وبشكل جليّ ، حين كنت فى الثانية عشر من العمر . كان هناك تأثيراً غريباً يشدنى إلى زمان الطفولة لكنه أصبح الآن شعوراً مغايراً، لذلك استحضرت هذه القصيدة التى تتواءم مع هذه المناسبة:

متأخراً شاخ الليل

والقمر امتطى صهوة السماء

كى يصل منتصف الطريق

يانسيم الجبل الخريفى

إنى أصلى .. أقاتل من

أجل أن تعود

أو ربما كنت سأكتب فى هذه أشياء أخرى مثلاً :

متأخراً شاخ الليل

رأيت القمر يمر أمام جدار حديقتى

عودى ولو مرة واحدة يا حبيبتي

دون أن تختبئى فى الزمان

لقد أحبيت حقاً . كثيرون يفعلون ذلك والبعض يردده لفتاة صغيرة وليس لإمرأة حينما يكون بعمرى أو لطفل عندما كنت فى سن الثانية عشرة أو العاشرة .

قابلتها حينما كانت تدرس القرآن لم أكن أعرف اسمها لكن عينيها الواسعتين العميقتين كانتا تبسمان لى من وقت لآخر كذلك ضحكاتها التى كانت تخرج من فم جائع وشعرها الطويل الأسود . . حقاً أسرت نظراتى وتملكتنى .

لم ألتقيها مطلقاً فى الدرس ، كانت خجولة جداً إلى الحد الذى لا تسمح لى بمحادثتها ونحن نسير فى حديقة الجامع متجهين إلى بيوتنا .
أطلقت عليها اسم " ثمر " وهو اسم وجدته فى القرآن ، كان اسمها يوحى بالعطاء والخصب .

كنت أصدق فيها من وقت لآخر بعين واحدة فيما جعلت العين الأخرى ترصد الشيخ وعصاه (الروطان)

كذلك تبعثها عبر المسالك الضيقة المؤدية إلى بيتها وبعد توقف طويل ملئ بالترصد والأفكار التائهة ، استعدت أنفاسى أى عدتُ إلى وعيى وأنا اتابع العودة إلى غرفتى الخاصة فى منزل السيد محمود جبروف ، شيئاً فشيئاً بدأت حقاً تأسر قلبى ، إن لم تكن قد سحرتنى فعلاً وللحظة فقدت

السيطرة على نفسى وغربتى .. أى اختلافى عن هؤلاء .. كذلك عمرى عندما تجاوزت مرحلة الإعجاب إلى الحب ، صارت بالنسبة لى رمزاً للصبا والوله ، كنتُ قادراً على الفصل بينى وبين المكان باعتبارى زائراً ، أمريكياً فى بلد آخر ، لدى تجربة ومغامرات من كل نوع .. أتعلم ألفاظاً رصينة وأظن أنى كنت قادراً على تكييف نفسى ضمن كل الظروف المختلفة .

أجامل ولأنى أعتقد أن كل الحماسة تتمثل فى رجل داهمه سن العشرين جالساً مع تلاميذ المدرسة .. مردداً جمل وكلمات الشيخ العربية ومحفوظات دون أن يعيها .

بدأت أفقد الإدراك بحقيقة من أكون أنا .. وعدم قدرتى على فرز سنوات عمرى ، لم أكن أكثر من حالة وعى انفصلت بتراخٍ عن حالتها الأولى .

كانت انتكاسة خطيرة لم أفقها وبدأت أصدُر أصواتاً وأتصرف كالأطفال .

كان حبيب يسخر منى ويعتقد أنها جزء من تغيير طبعى إلى الحالة البربرية فيما كان حسن يحذرنى عندما أحاول إحراجه أمام صاحب الدار .

فى هذه الأثناء كنتُ أجلس فى صومعتى لأكتب الشعر إلى " ثمر " وأحياناً كنت أكتبه على ورق كبير وبحروف عربية كبيرة وواضحة وأضعه على الجدران التى كنت أعرف جيداً أنها ستمر بها حينما تعود إلى البيت ، لقد جعلت حبيب يكتبها لى أكثر من مرة بخطه الواضح والجميل ، كان يظن أننا نقوم بكتابة جمل صوتيه أو شيئاً صوتياً كما كان يفعل

السفسطائيون " أخبرنى . . " أنا من أعماق قلبى . . وهو من باطن عقله
كصديقين وصلاً نشوة الحب ، كان يتصور أن ذلك دليل على تحولى إلى
الإسلام وذلك ما يفرحه ، لكنى كنت فى حقيقة الأمر كمن فقد عقله
بشكل جميل مروع ، لقد كان الطفل الغامض بالنسبة لى والذى صار فيما
بعد ، الغموض ذاته .

وإن كان هذا مجرد عالم الزهور والفوانيا

ومهما يكن من اغترابنا عن بعضنا

فإن قلبينا سيلتقيان فى الربيع الحبيب .

وإن كنت قد فقدت القدرة على رؤية الأشياء بشكل منظور فمازلت
أتصور الله وكأنه المحبوب لحديثنا الطافحة بالحياة المتبادلة ولكن شيئاً
فشيئاً ترك الحديقة وكذلك " ثمر " التى كانت معشوقتى المتجسدة فى
صورته . . هو المعشوق الذى ألهمنى حبها وجعلها تشغف بى جداً .

لماذا يا معشوقتى التى أضئت قلبى

تختبئين الآن فى الليل

يا غيابها الذى أصاب بالعمى

عينى المتلهفة

أو لأذهب أبعد من ذلك :

عندما أنساك للحظة

صفائر ليلك الطويلة الناعمة

عيناك المتوهجتان

تضيء لى حبي

أو :

أتسائل

من هو الأكثر ارتفاعاً

الرذاذ المنسكب من نافورة الجامع المقدس

أم دمعى المنهمر

وأنا بانتظار أن تضم ذراعاك

عشقى . .

عدتُ أشك فى تمردى ، وعلى هذا النحو :

لو أننا سنموت

من أجل حبنا المحرم

مالذى سيقضى به الله

على عشقنا الذى يفقدنا الفردوس

مرةً أخرى :

أكثر قسوة من سكين الراعى التى يجرز بها القطيع

هو الحب الذى يلتهمنى

لا أحد يقدر أن يحررنى من الله
الله الذى شد قلبى طفلين معاً
فى وثاق محرم
ربما فى السطور اللاحقة سيتحول عقلى إلى بيت مهجور
لم يتبدل ولائى
لكنى تبدلت
أصبحتُ ظل حبيبى
ودربى بخطواته .. مشوى
لشبح بيتى المهجور
وأخيراً :

تعبان من العالم
أصبحنا قطرتى ماء
فوق شفتين ظامتين لسجين
وهانحن فى ظنى الآن شبهان ،
فهل هناك نظرة تثبت عكس ذلك ؟

هذا السؤال المتروك دون إجابة على الجدران .. وحذر والديها الآخذ
بالازدياد والشكوى للسيد جربوف على تصرف ضيفه الأجنبى .. الذى
يمر بالأزقة والشيوخ من الناس ترافقه صيحاتهم والآخرين بالعربية ..

«مجنون» .

أصبح حسن صديقى المخلص .. يحذرنى من سوء أفعالى والتى
تجعلنى أفقد نفسى .. «ربما ابتعدت فترة طويلة عن أناسك» .. أجبت
متوافقاً نفسى .. متزعجاً من قسوته المفاجئة .. «إنى أحبها .. وهى كل
ما رغبتُ به .. كل شىء أحبته دوماً» .

قال لى "هى فى الحادية عشر من عمرها .. بن توماس .. أخبرك
هذا كونك صديقى ، كانت غلطتى بوضعك فى صف للصيبة ، فأنت
لست كذلك ، أنت فقط تتصور ذلك " .. وحين لفظ " إنها غلطته "
شعرت بالضيق وألححت عليه بأن يتركنى فى عزلتى هذه التى كنت أقضيها
وحدى فى حديقتى الخاصة بى .

لم أتصل بأحد فى تلك الليلة .. رفضت تناول الطعام .. شعرت
بالحيرة والقلق دون أية علامة تشير إلى مكانى ، استطالت جدران الحديقة
وتشتت أغصان الكروم فوقها بأزهارها المجهولة وشذى عطرها الذى يؤثر
فى الآخر وكأنه منوم مغناطيسى أخذ .

كانت الطيور الموشاة صدورها باللون الأصفر ذات الأجنحة السوداء
تطير جيئة وذهاباً ، هذا الصمت أضاف لى كتلة من الفراغ لغياب لم أكن
قادراً على ملئه .

جف الدمع من أحداقى أو هكذا خيل لى ، لم أكن قادراً على رؤية
أحد أو التواصل بالحب معه . ضعت فى وقار طاهر ووفاء يوغل فى خيالى ،
لا أعرف غير القليل ، أنظم الشعر دون أن أكثرث بالقافية ، أصبحت
مذعوراً لكنى اقتنعت من أن حسن قد كشف الحقيقة وبشكل هادىء لثلا

يجرحنى ، لست طفلاً ، كنت وضعياً أهوجاً كاد أن يجن أو أنه فقد عقله بالفعل . أمضيت الليلة فى البيت حتى بلل الدمع أكمامى ، ارتجفت منفعلًا وكان وجهى مملوئاً بالإحساس مثل لوحة صماء لا ينطق فيها لون ، لم يخامرني هذا الشعور منذ أن رحل أبى بعيداً ، ضربت جذع الشجرة بقبضتى حتى سال الدم منها ، أما الآن .. أجلس على الكرسي مرتجفاً ، أنوح وأنا أسأل نفسى .. مالذى سيحل بى ؟ لم يدر فى خلدنى أن الإنسان يصاب بالحمق بسبب الظلالة أو الحب وتذكرت وصية أمى وأشياء أبى ووقوفها قرب الساحل وكأن الدموع تصرخ ، كأنها صدى الألم .. يا لجنونى الغريب المفاجيء ، وشوقى لإنسان أجهله ، نحل جسدى من هذه العلة وصرت ظلاً يسامر صورة غائمة ، باسطاً ذراعيه لهذا العشق .

عند الصباح أتوق لهذا التوازن أكثر من أى وقت مضى .. هربت من نفسى لبؤس حالها ومما هى عليه الآن .. فارتميت فى ذاكرة صورة أخرى لطفولتى .

لم تكن تتعلق بالنهر ولا تلتصق بصلة لأبى ولأمى أو لشقيقتى ، كانت شيئاً مغايراً حقاً ، ربما لا تعنى لهم شيئاً ، تذكرت النسيم الذى داعب الستائر قرب سريرى على النافذة حيث كنت مستلقياً على فراشى ، وكان الوقت عصراً ، أخذت القيلولة كما كنت أفعل فى الصغر لكى أهرب من حرارة الشمس ورطوبة الساحل الشرقى ، كنت ألتذ بالتطلع للستائر البيضاء القطنية ، تبهر وكأنها أشعة ممتدة تذهب مع النسائم القادمة من النهر فبدت لى وكأنها أشعة لصارية لا ترى أدارت اتجاه قاربى فى التفاتة صغيرة حملتنى بعيداً صوب أماكن قلما أعرف أسماءها .

قلما زارنى السيد محمود جربوف احتراماً منه لرغبتى فى البقاء وحيداً ولم يبدِ ضجره من بقائى وإياهم دون تحديد موعد مغادرتى . جاء فجأة لتناول الشاى وبعض الكعك ، ولم ينفذ صبر الرجل أو يفقد قدرته على الاحتمال وتجنب الإثارة لما أخبرنى حسن والذى أصبح واضحاً للجميع .

تركنى السيد محمود مدركاً تأخر الوقت وسألنى كما فعل حبيب إن كنت أعانى من سوء التغذية كرجل ، أجبتة بإصرار . . أننى بصحة جيدة وأسكن فى دار ممتازة وكل احتياجاتى متوفرة . . فتساءل مندهشاً : «كيف وأنت بهذا الهزال وفى هذه الوحدة» ، قلتُ له : كنت أكمل مذكراتى ، أو بالأحرى تأملات وقصائد مثورة .

بدا السيد محمود فرحاً وممتناً لأننى أقوم بذلك وبهدوءٍ فى منزله ، لكنه تابع . . «أنت بحاجة إلى إمرأه ويجب أن تعيش حياتك على الوجه الأكمل وإلا فسوف تذبل وتموت ، ثق بى كأخ أو صديق ودعنى أرتب لك الأمر هذه الليلة ، إن تحديد الموعد لأمر ثقيل على لأنه مفروض ومحدد من قبل شخص آخر . اشتقت لوحدتى حيث ألقى الضوء تحيته على ،

والأزهار وأوراق الأشجار والجدران ، كان الوقت يسرع بين خشخشة الطيور التى كان أصنافها غير مألوفة والانطلاقات المبهمة .

عدوت من الحمام عبر ساحة الدار ماراً بأبواب عدة ، مغلقة فى الجناح الخاص بمحمود جربوف وانطلقت إلى المدينة حيث فكرت جدياً بمحاولة الهرب ، أنى أمقت أن يفرض الآخرون ما على فعله ، إنها الروح البشرية التى جعلتنى أفكر فى ترك المكان ، كنت مقتنعاً بالعيش خارج الزمان وبعيداً عن جهود الآخرين لاستحضار الزمن فى ارتكاب حماقاتى ، ربما حاولت تجاوز رغبة كهذه بالسفر والانخراط فى أعمال مختلفة وتجنب التعليم التقليدى والتدرب على الأعمال وغير ذلك .

وقبلتنى أمى برفق حيث أعمل . . وأتجول وهى على يقين بأن كل محاسن الحضارة تكتمل فى تدريب العمل والزواج والأطفال وتنمية الهوايات والاهتمام بصحة البدن والتخطيط الجيد للزمن الذى يتلو ترك لوظيفة ، والتى يمكن أن يدركه فقط من يهتم بذلك .

لم أكن أوّمن وليس لديه الرغبة فى تحليل ذلك الاعتقاد أو تفسير حبه الطاهر أو نزواتى الحالية .

ارتباطى بالنساء لم يكن بالأمر الذى أفكر فيه ، وهذا الأمر لا يعنى أننى لوطى بل على العكس تماماً ، لم أكن أوّمن وليست لدى الرغبة فى تحليل هذا الاعتقاد أو حتى تحليلى فى الفانتازيا والحب الصياني ، لقد أزعجنى هذا المقترح فاستشطت غضباً لهذا الربط التافه بينى وبين المرأة للعجرفة والغطرسة والقباحة التى يتسم بها الموقف .

كان تصرفاً وحشياً لعجزهم منى كعازب كما اعتقدت وإشارة لى منهم لمغادرة المكان بأسرع ما يمكن ولأننى قررت الهروب بهذه الطريقة فقد صرت أخشى الظهور فى أى مكان ينتمى إلى السيد محمود ، عدتُ ثانيةً للتفكير بالفرنسية رغم أن العربية ما تزال تستحوذ على عقلى دون إدراك منى .

لم أشعر بالعربة ، لأننى بتُ أتحدث بثلاث لغات مستخدماً الإنكليزية من وقت إلى آخر ثم ظهر السيد محمود فى إحدى زياراته المعتادة ببدة ال (تويد) متخفياً كرجل انكليزى فى أحدث زى .

نادراً ما كنت أفكر بالإنكليزية . كان عقلى ينطق بشكل إيقاعى متناغم بالعربية ، حسب الأفكار التى تشغل ذهنى تتناسل من اللغة الفرنسية لكنى كنت فى فترات قصيرة أمزح باللغة الإنكليزية وأسخر من حالى ، وأتمتع فى وصف تفاصيل الأشياء ووصف الأشخاص من حولى . بدأت الآن أدفع ضريبة اللغات الثلاث التى تحاصرني ، لأفكر بشيء مناسب وعمل مبدع أقوم به بعد ذلك وفى الصباح وبينما كنت أسير فى الساحة حيث سحرة الأفاعى يضعون أشياءهم ، وجدت الحل الملائم لشخص فى متاهتى ، سرتُ مرات عديدة خلال الساحة الصخرية الصغيرة حيث يستمر سحرة الأفاعى بممارسة أعمالهم أمام السياح ، كنت قلما أقف قريبهم عندما أراهم ، رغم ما يأتون به من حيل جديدة .

لم أتحدث مع أحد قط ، كانت مزاميرهم وأبواقهم وأصابعهم المفتوحة ورقصاتهم العربية عبارة عن مناظر غير منسجمة لذلك فضلت أن أتجاهلها ، كانت عرضاً تهريجياً وألعاب سيرك سحرة الأفاعى الذين سمح لهم بالدخول إلى المدينة والخروج منها ظل الشك يحوم حولهم باعتبارهم

عجراً وقطاع طرق ، لم يكونوا بالضرورة من البربر والعرب ، كانوا من أصل هجين من قبائل الصحراء البدوية المنحدرة من جنوب المغرب ، لا أحد يعرف من هم أو يتوقع منهم أن يحترموا أو يطيعوا أصول الضيافة ، إنهم يرافقون الأفاعى صامتين بمعنى أنهم يشكلون منظراً غاية فى الغرابة .

توقفتُ وأنا أجتاز الساحة لأرى ساحر أفاعى شاب يماثلنى فى الطول والجسد ، له لحية هزيلة شبيهة بلحيتى ولون بشرته الشاحب كما هو حال الأوربيين ، كان له اثنان من الأفاعى وكأنهما حزمة راقدة بشكل حلزوني فوق حصيرة ، إحداهما كوبرا إلا أنى لم أميز الأخرى لأنها لم تكن بالطول الذى كانت عليه الأولى ، ولا تشبه الأفاعى التى رأيتها فى المدينة أو الساحة العامة ، كان مع الساحر سلة منسوجة ومزمار موسيقى ، حيث ارتدى جلابية زرقاء داكنة ووضع قبعة بيضاء متسخة متخبطاً المكان ببطء محركاً يديه بحذر ودقة كقائد الأوركسترا أمام الأفاعى وقد بدا مسحوراً أكثر من الأفاعى نفسها وهما تحركان رأسيهما على إيقاع أنغامه وكأنهما يوجهانه أكثر مما كان يفعل هو حينما يهيم برخارجهما من سكونهن .

تساءلتُ كما لو كنت أعرف فن هذا الساحر من خلال رصده المستمر ، كنت أعتقد أن هذه هى فرصتى للهرب لأتى كنت أدرك أن هؤلاء السحرة يجيئون ويذهبون إلى المدينة حسب رغبتهم دون أن يلاحظهم أو يسأل عنهم أحد ، كانت فرصتى الوحيدة للاختفاء . كان الأمر يبدو حماقة لأنه يتطلب التآلف مع الأفاعى الخطرة . إن الشعور الغريزى بتخويفهم وتمكنى منهم ، ولكنى فى الحقيقة ، لم يكن لدى الوقت الكافى لاكتساب هذه الخبرة ، كان يستحيل على السير خارج المدينة إلى محطة الباصات ،

فالكل يعرفنى وسيذكرون ذلك فكلمة واحدة ستعيدنى إلى السيد محمود وإلى دارى . لقد اعتاد الناس على رؤيتى مدة عامين كاملين وأنا أسير أمام محلاتهم وأتوقف لأتفحص بالآت القطن المصبوغة المعلقة فوق الأسلاك وهى تطالع السماء حاملا مصاييح الضباب فى محل عامل المعادن مازحاً مع بائع الأعشاب مصغياً للصبى الذى يقوم بالغزل وهو يصرخ فى تقليد ساخر لصيحة المؤذن الذى ينادى للصلاة بينما يحتفظ بإيقاعه الريب بشكل متوازن مع وضع إبهاميه تحت أذنيه . شاهدت الجلايات الجديدة معلقة على المشابك ، السجاد مفروش والخراف حليقة الصوف وآلة دباغة الصوف لفرشه . رآنى رجال الدين ، رجال الأعمال ميزونى ، أمسكنى الأطفال فيما لم يكن هناك مخرج من المدينة يؤدى إلى مكان لا يعرفنى فيه أحد . لقد كان الكثير يعتقد بأننى مجنون ولم يبدو بأنهم يشعرون بالراحة لمغادرتى ، كنت أتصور هذا فى فصل آخر وأشهر مضت فى منتصف الصيف وفى أقصى درجات الحرارة والشمس ترتفع وسط السماء .

أصبحت غير مرئى حينما ارتديت الجلاية البيضاء البنية المائلة للصفرة ، ماراً بنوافذهم المغلقة . كان الناس يجلسون قرب البنايات ورؤوسهم تختبئ تحت قبعات الخوص والمظلات ، ربما لم يرئى أحد لكنى لم أستطع الانتظار ، على المغادره الآن فلست أطيق الانتظار إلى الغد .

أصبحت قرب الساحر وتحديثُ إليه بالفرنسية التى لم يفهمها ثم بالإنكليزية التى كان يجهلها أياً ثم قال لى (روسى) أو هكذا بدت لى ، (روسى) أعدتها أنا أيضاً ، أجابنى بالإنكليزية «نعم» ، قلتُ له «لا» . كان كل ذلك نوع من الحماسة وتساءلتُ فيما لو كان الرجل قد تجول

متخفياً فى فضائل الحضاره أيضا ، توقفنا بعدها عن الحديث .

شاهدته بعد ذلك يناور أفاعيه ، حاولت معرفة نوع الأفعى الأخرى لأنها كانت صعبة الترويض كالكوبرا التى كنت قد قرأت عنها مرات عديدة عندما كنتُ أعيش فى ساحل شرقى ميرلاند . تحدثنا بعد ذلك بالعربية لكن هذا الشخص الروسى كان يعرف القليل فقط . تحركت الأفعى الثانية قريباً من حافة الحصيرة واقتربتُ منها كى أتفحصها . سحبنى الرجل فجأة بقوة وكأنه يهزنى وذلك عندما شاهد رأس الأفعى وهى تفرّ نحوى كما لو كانت قد رمت بجسدها من فوق شجرة . حرك يده اليمنى نحو صدره وبإيماء خاصه أعلن انتهاء العرض . رفع ذراعيه فوق رأسه وحنى ظهره مثل عملاق يتضاءل بجسده ليغدو كقزم . لقد تملك الأفعى لإعادتها لكن الكوبرا لم تتحرك ، كنت متردداً بالتفكير ولكن لم يكن لدى خيار آخر .

أبصرت الساحر وهو يحاول أن يهدىء من روع الأفعى المنفعلة ، حتى أنه لف جسدها على بعد قدم واحد من الكوبرا فوضع رأسه عبر جسدها الملتوى حتى ومضت بعينيها وابتلعت لسانها . قام الساحر بذلك عبر حركات جسده فقط . حركات اليد والاكثاف مرتفعة ، ذراعان ممتدان وركبتان منحيتان كما لو كانت فى رقصة . ثم أعقب ذلك صمت مطبق .

كانت الأفاعى منسجمة معه ، واثقة من أنه لا يخيفها أو يؤذيها كما كنت أفعل أنا الغريب . وأطبق الروسى عن قرب وهو يتحرك ببطء داخل الحصيرة باتجاه الأفعى ، ينحنى إلى الأمام فى موازنة وسيطرة تامتين . رفع الأفعى بكلتا يديه ليضعها فى السلة وهو يطوى جسدها برقة إلى الداخل تاركاً إياها تحت الغطاء فى ظلام مريح ، ثم عاد إلى مطأطأ الراس ، جلس

على الأرض وقام بحركات بسيطة عبر رأسه ويديه ليفزع الكوبرا والتي بدأت تفح وتوازن رأسها حتى بدأت أنا أيضا أشعر بسفونية متناسقة تحدثها الإشارات العمياء ، بعد فترة وجيزة ، رفع ذلك الروسي الكوبرا بيده ولفها برقة داخل السلة مع رفيقتها المسالمة . تبادلنا النظرات ولكن بصمت أيضا .

أدركت أن الروسي قد فهم ما أبغى حيث أنه سلمنى حقيبة فيها أشياء شخصية لأحملها بينما التقط هو سلة الأفاعى وحصيرته إذ لم يكن هناك متسع من الوقت . مشينا معاً باتجاه سوق الأصواف وحتى وصلنا الجزء الشرقى من المدينة ، دخلنا ساحة مليئة بالرجال والخراف وهم يصطفون بانتظار أن تقلهم سلسلة الشاحنات القديمة . سرنا معاً وكأننا رفيقان قديمان ، أدركت بعدها أن الروسي لا يريد إثارة إنتباه أحد كما كنت أنا أريد الشيء نفسه ، ورأينا حشد من الرجال لم يعرفنا أحد منهم حتى وصلنا إحدى الحافلات . صعد الروسي إليها أولاً وأخذ الحقيبة من يدي ثم سحبني إليها بجانبه ، جلسنا قرب موضع القيادة فى الحافلة المفتوحة مسندين قفانا إلى الحافة الجانبية . وضعنا الحصير والحقيبة وكذلك سلة الأفاعى بين أرجلنا فى هذا المكان الآمن الصغير . ملئت الحافلة بالرجال وما يزيد عن إثنى عشر خروفاً كانت تسيل الدماء من ظهورهم لأنهم قد حلقوا للتو . تشبعت ملابسنا بالرائحة التنة ، خفضت رأسى فوق ركبتى . ناولنى الروسي برتقالة من حقييته ، قمت بتقشيرها فوق أرضية الشاحنة وناولته جزءاً منها بينما أكلت ما تبقى . كانت الخراف تخور فيما تحركت الشاحنة .

كان الروسي يمد بيده بجوانب السلة ليهدىء الأفاعى المخشخة . رفعت رأسى إذ وخز الروسي ذراعى لينبهنى بأننا وصلنا ضواحي مراکش ،

كنا نسير صوب الشمال بعيداً عن الجبال التي كانت ترفرف فوقنا بقممها المغطاة بالجليد كطبقات الحناء الكثيفة الى كانت تغطي الأرض ، لقد تغيرت الأرض عما كانت عليه حين وصلت قبل عامين ثم بدأت مراکش تتوارى عن الأنظار .

اختفت التلال الصغيرة الواقعة فى الطريق المتعرج وأقية الفنادق .

لم نستطع التحدث أنا ورفيقي ولم يكن ذلك بالشئ المهم وكانت الحافلة تسير ببطء دون توقف . وصلنا إلى بناية فى جانب الشارع فيها مقهى صغير . قفز الرعاة من فوق جوانب السيارات ليريحوا أنفسهم كما شاؤوا . بقينا أنا وصاحبى وحيدين مع الخراف فى الشاحنة لوهلة قفزت بعدها إلى الأرض . ناولنى الروسى أشياء الواحدة تلو الأخرى ، أعطانى سلة الأفاعى ببطء وأشار علىّ بالمزيد من الحذر وأنا أحمل جانبيها بشكل معتدل وأحكم غلق الغطاء بإبهامى . حملتها بهدوء قريباً من وجهى ، شعرت بالأفاعى وهى تتحرك فى داخلها . أخذ الروسى السلة من يدي حين قفز بقربى ثم وضعها على الأرض بعيداً عن رائحة الخراف التتنة .

مرت السيارات بنا بأقصى سرعتها ، حين رميت ببصرى إلى الشارع الخارجى شاهدتُ سيارة مألوفة لدى ، أمسكت بذراع صاحبى بقوة ، هدا الروسى من مخاوفى وتصرف بعنفوية ودون أن أبصر ما فعل ، حمل أفعى بيده ووضعها فى يدي ثم انحنى ليرفع الأخرى ، أشار إلىّ وكان قفانا باتجاه الطريق وذراعانا ممدودتان فحملنا الأفاعى إلى الأعلى . داهمنى الرعب فلم أقدر على التنفس ولا حتى على الحركة ، ضغطتُ على رقبة الأفعى بإبهامى راصبع السبابة وحملت ذنبها بيدي اليسرى ، رفع الروسى

أفعى الكوبرا وصفر لها برقة لتبقى هادئة ، سمعنا سيارة ديزل تبطئ السير قربنا لكنها لم تتوقف ، أدت رأسي قليلاً فرأيت محمود يجلس فى المقعد الخلفى قرب حسن ولكنى لم أعرف السائق . كان الرعاة يقفون بباب المقهى محمقين بنا ، مأخوذين بالأفاعى وسحرتها ولا شك أنهم لم يعرفوا رفاق سفرهم و لا عملهم كما جهلوا محتويات السلة حتى ذلك الحين . أخفى صاحبى الأفاعى حين اقترب الرعاة وهم يستعدون للانقضاء علينا .

وضع الروسى الكوبرا فى الحقيبة تاركاً الغطاء مفتوحاً ولم تكن هذه الأفعى راضية بذلك التصرف فأبقت رأسها مرفوعاً يندفع بانفعال ثم سحب بحذر ابهامه الأيمن وسببته على امتداد جسد الأفعى الأخرى التى كانت فى يدي وضغط على جسدها جاعلاً أصابعى تنحدر إلى الأسفل ببطء وتوازن حتى نقل الأفعى إلى يده دون أن تحرك رأسها ثم أمسك ذنبها بيده الأخرى ، كان العرق يتصبب من وجه الروسى وحين أبصرت حالتى ، كانت جلابتى مبتلة بالعرق ، خفض الروسى الأفعى ببطء من أمام رأس الكوبرا وهو مازال يتمتم بإيقاع سهل خفيف ولفت الكوبرا جسدها حول راسه وأصابعه دون أن تؤذيه وبعد لحظات قليلة من الهدوء والتى من خلالها رأيت عيني الساحر الزرقاوين ووجهه يشحبان ، سحب يديه ببطء وعض بفكه الأسفل على شفته العليا ، نكست الكوبرا رأسها فى السلة وغطى صاحبى كلتا الأفعيين فى مقرهما الأمن المظلم . راح الروسى يلتقط أنفاسه لدقائق ثم أمسكتُ بيديه وساعدته على الوقوف . هدا غضب من حولنا وتخلوا عن عدائهم ، كما قدم لنا اثنان الشراب من بعض زجاجات

الصودا فاحتسبنا شيئاً منها وقدمنا لهم الشكر .

عدنا وبصمت إلى الحافلة ما عدا أصوات الخراف الصغيرة الخائفة ،
فى هذا الوقت كان السيد محمود فى مكان ما وكنت قد نسيت تقريباً . لو
ظفر بى الآن لاعتبرنى فى منتهى الجنون وفرح لخلاصه منى . كنت مجنوناً
حقاً ، شىء من الجنون الخفى ، كنتُ والروسى مصابين بالجنون إذ كيف
جاء كل منا إلى مراكش .

لقد فجع الروسى فى إخفائى عن أنظار المتربصين بى وتحرك بخفة
عندما أصيبوا بذهول لرؤية الأفاعى . وقفنا سوية ، رجلان مجنونان ،
يائسان بتواريخ شخصية لا نعرفها ولسنا بحاجة إلى ذلك كان الجنون الذى
يحمينا هو مصدر حريرتنا وغرابتنا . إلى أين سيذهب الروسى بعد ذلك ،
إلى الدر البيضاء ؟ أو ما وراء فاس أو إلى أى مكان آخر ، لقد كنت
فضولياً حقاً .

هل سيبقى ساحر أفاعى إلى الأبد ؟ هل سيتقل إلى حيث يذهب
سحرة الأفاعى ، بينما كنت أقشر المزيد من البرتقال كان قد طوى جوانب
السلة . بعد ذلك ، وعند ضواحي مطار الدار البيضاء توقفت الحافلة ، أشار
إلى الروسى بالقفز ثانية ، تحدثت بالقليل من الكلمات العربية (أخى -
صديقى) ورد على جملة أو بجملتين بالروسية التى حاولت أن أقلد أصواتها .
وحين سارت الشاحنة حاولت أن أقلد أصواتها ، وقفت وحيداً فى
الطريق ثم اختفت أصوات اللغة الروسية .

سرتُ على امتداد الطريق الخارجى ترشدنى علامات مرورية إلى مدينة نواصر . لو كان لدى شىء أعمق من الحكمة والكتمان والعبقرية لكنت بقيت فى الحافلة ، واتجهت نحو الساحل وغادرت فى الطريق غير السالك إلى جبل طارق ، ولكنى تذكرت طنجة وصممت أن لا أمر عبر الكمارك مرة ثانية ، لن أجعل نفسى عرضة للإهانة مرة أخرى وسأترك أمرى للمجهول .

شىء أبعد من المخيلة ، سلوك يمارسه الرجال الأكثر تحضراً ، سرتُ بامتداد قامتى فى الطريق الخارجى العريض الذى يقطع الحقول المنبسطة غير الأهلة بالسكان والتي ترامت للعيان لأميال طويلة . أنه الجنون لكنه الطريق الوحيد للهرب . وصلت المطار دون حدث طارىء ، أبرزت جواز سفرى الذى جلبته معى ودفعت أجرة التذكرة إلى باريس من صكوك المسافرين الذى كانت معى ثم دخلت غرفة الانتظار وجلست لأخذ قسطاً من الراحة ، أغلقت عينيّ بذهول متجاهلاً كل من حولى متطلعاً بالجدول الزمنى للمغادرة .

كانت جلايتى مشبعة برائحة العرق والخراف ، تساءلت عن مكان

الحمام أو أية جهة أغتسل فيها بشيء من الماء فقد غطى التراب شعري ولحيتي كذلك ملابسي والضمادة التي كانت مصنوعة من صوف الخراف . ذهبتُ إلى غرفة كانت قد خصصت للرجال وهناك قابلت حسن وشخص ثالث ذو بشرة داكنة . " نحن نتسائل متى أصبحت متسخاً بهذا الشكل الكافي لأن تغتسل " . قال السيد جيربوف ، لقد علمت بحضور حسن بإشارة رأس ودية لكن الآخرين ظلوا صامتين حذرين ، لقد أخبر السيد جيربوف البربر الاثنين بأن يتركونا وحدنا عندها اعتقدت رداً ممنوعاً الآخرين من الدخول . كنت على أتم اليقين منذ مدة بأن مثل هذا اللقاء سيتم سواء هنا أو في مكان ما حتى لو لم يكن في نفس المدينة .

رأيت مضيفي وهو يخرج مسدسه الآلى من سترته التويديه الإنكليزية ويمسك به مصوباً نحو رأسي ، " لقد أخرجتني وأهنت ضيافتى بتصرفك المجنون وترحل الآن دون كلمة بعدما قضيت عامين كاملين كأفضل ضيف لى ، أنت تعلم أنك عنيد جداً " . كانت الكلمة الأخيرة تافهة وبشكل منفر لكنها تحولت فجأة إلى سخرية . " لقد أشعرت المرأة التي اخترتها لك بالعار وكذلك أنا وهذا ما لم يفعله أحد معى من قبل " .

" إننى لم أهن ضيافتك ولا حتى هذه المرأة " ، أجبت به بتحد وأنا أحرق بوجهه ، " لقد أحسست ببالغ الترحيب منك كذلك أخذت الكثير ولكنى أخرجت نفسى وأخرجتك معى ولم يكن لدى من خيار سوى الرحيل " حرق بى السيد جيربوف بعدها بنظرة غاضبة وهو يدفع بمسدسه بمحاذاة وجنتى ، كان يحركه بشكل طفيف من جهة إلى أخرى ثم استقرت يده حينما كنت أطلعه ببطء وهو يضغط على الزناد .

" أخى " .. قالها فجأة .. " أخى الصغير " .

" لم أكن أسمح لك بالمغادرة لولا ثقتي بأن خوفك تغلب عليك ، أنت لم تعرق ولم تومض عينيك . لماذا ؟ " قلت له " هل هذا مهم ؟ " " أنت لم تعد الرجل الذى عرفته عندما جئت إلينا للمرة الأولى أو حتى حينما تحدثت إليك هذا الصباح . كنت من العادة أن ترتعد عندما تسمع كلمات رجل قاسية " .

خفض مسدسه من على وجهى ليعيده إلى جيبه إلا أنه بقى محتفظاً به فى يده .

" لقد فكرت حقاً بقتلك ، هل تعلم ، منذ اللحظة التى لم تعد فيها ضيفى ، نعم أعلم ذلك حسناً ، أنت غير مرغم على ذلك مثلما يقول الشيخ الفرنسى " . . . لم أنطق بكلمة .

" ربما سيكوك أصدقاؤك لكنها مشيئة الله التى جعلتك ترحل " . لقد بقيت هادئاً وصامتاً ، ثم قال لى " هل تعلم أنك مسافر غريب " ، ابتسمت فى أول الأمر . . . ثم تابع ، " نعم أنت غريب تماماً ، أنت صاحب قلب بربرى ، أمريكى بربرى وليس فقط أمريكى ، أنت البربرى الحقيقى يا صديقى ويا أخى الصغير ، البربرى الأمريكى حسناً ما فعلت " ، أمسك على أثرها بوجهى بكلتا يديه وقبلنى فى وجتى ، " الآن عليك أن تستحم فرائحتك كريهة فمن غير اللائق بالبربر أن يخرجوا للطعام وهم على هذه الصورة التنة ومن أين أتت هذه الرائحة ؟ " " وهل يهم هذا ؟ " قلت له . ثم عانقنى مرة أخرى ولكن بتردد وكأنه كان غير متأكد مما فعله كذلك بعدم سماحه لى بالمغادرة . تنفس بعمق ثم لمحت ألالم فى عينيه عندما جلس للخلف بعدها سار ماراً بى ثم اندفع فاتحاً الباب لأرى حسن للحظات من خلال هذه الفتحة ، لوحات ييدى اليمنى لدليلى السابق والتى كانت صدى تحيته أيضاً .

الجزء الرابع

عند وصولى إلى مطار باريس وجدت باصاً ، نقل حوائجى القديمة ماراً بالحي القديم الذى أسكنه ، وقف على مقربة من شارع (فسكونتى) .
 لاشيء قد تغير رغم شعورى بعدم انتمائى لهذا المكان، حاولت قرع جرس باب صاحب العقار عدة مرات وبعد فترة ليست طويلة فتح الباب ، وصاح السيد " كيدون " «أوه» . . أكدت له أننى الساكن القديم فى الشقة التى تقع فى الطابق الرابع ، صرخ الرجل بصوت عالٍ وابتعد عني داخل قبوه ، وحين تبعته صرخ عالياً رافعاً يده ليحمى نفسه وهو يصرخ " لا تقتلنى . . لا تقتلنى . . توقف . . فسأل الرجل . . لماذا تتبعنى ؟ " فقلت له " أنا سبىرى " ، " لكن ملابسك . . شعرك ، لحيتك وأنت ، كأنك تبدو مخيفاً ، لم يكن ذلك الرجل بهذه الهيئة " .

عدت لغرفتى وأشياءى الخاصة التى كانت متوفرة للآن .

" إن كنت حقاً السيد سبىرى . . أين كنت بحق الله طيلة هذه المدة . . ؟
 تبدو متوحشاً " ، أجبته . . " لم أرحل ، ولكنى كنت فى مكان بعيد " ،
 وسألته " هل أرسلت لك أمى الإيجار ؟ " فصرخ " نعم . . نعم أيها
 الرجل الطيب . لماذا أنت بهذا الحال . . هناك الكثير من المشاكل فى العالم

الآن . هؤلاء العرب يحطمون المدينة الجميلة ، يقتلون رجال الشرطة فى الشوارع ، فوق أرصفة الموانىء ، نعم قرب شارعى العزيز فسكونتى ، لقد أرببى المشهد ، هل تريد مفتاح غرفتك ؟ " " نعم " .. ثم تركنى فى الصالة وسار منطلقاً يطأطأ رأسه ويمسح عينيه ، أريد رؤية صديقى " كوين " ، لكنى لم أرغب فى الخروج إلى الشوارع مرة ثانية ، بقيت عند الباب أنظر إلى ساحة البيت قرب سكة العمال ، والماء الذى كان يرشح من المرافق فى الخارج ، شعرت بنوبة من القرف والضياغ ، مؤمناً للحظة بأننى لم أترك المكان أبداً ، حددت فى البناية المهجورة ، لم تزل تحتفظ بهيبتها رغم الإهمال الشديد وافتقارها إلى أى ترميم ، حيث أن المدينة ذاتها كانت متصدعة ، رطبة وكأنها لا ترحب بالضيوف . عاد السيد كيدون وفى يده المفتاح ثم استأذنته باستخدام الهاتف لاتصل بالسيدة " كومى " أشار لى بأن الهاتف فى الصالة ثم أردف قائلاً : " لقد جاءت السيدة تسأل عنك إلا أننى لم يكن لدى أية معلومات عنك ، لقد ظن الجميع بأنك ميت ، إنى حقاً آسف لذلك ؛ لأننا كنا جميعاً غاضبين منك لأنك نسيت أن تكتب لنا لتخبرنا عن مكان وجودك .. ماذا كنت تفعل كل هذا الوقت ؟ " لم أكن قادراً على استعادة وسرد كل الحقائق والتفاصيل التى مررت بها طيلة العامين السابقين والتى كانت حوالى العامين والنصف .

إن العودة إلى المكان المتهدم جعلتنى أمتلك شوقاً عارماً .. شعرت بالاختناق لذلك ، وددت أن أرحل بعيداً . كنت أتصارع مع عالمين كلاهما بال وأردت الهرب من مفعولها التدميرى المشترك ، كنت أشعر وأشعر وعذابى يأخذ بالازدياد ، وربما أكون فى هذه اللحظة غير مستفيد

من نصيح حكيم أو عاقل أو أى عمل دون مبرر مجانى . أهجر عالم
الشعور والأحاسيس الذى طوقنى وقيدنى . كل شئ يبدو مألوفاً ويعجل
بانهيارى ، زجاج النيذ المكسور ، شرفة فقدت أعمدتها الحديدية ،
وقفص مكسور يرشح منه الماء ، كنت هزياً لكننى لم أعد أشعر بذلك
والآن ، لم أكن أدرك كم كنت قد انسقت بعيداً ، كنت أغطس فى غربة
غامضة ، والآن نسيت كيف امتزجت مع هذه الغربة ، رأيت الصبى وشفرة
الحلاقة بين إصبعى رجله تقطع أخاديد فى آلة الغزل الغليظة ، كنت أنا
نفسى قد قُطعت إلى أخاديد وبشكل منظم وأكيد ، تحولت إلى مغزل ،
شخصت لى آلة الحلاقة وكأنها سلاح انتحار ، ولكنها تنسجى إلى زمان
ومكان خياليين حيث يسكن الصبى ذاكرتى . وهو فى الحقيقة ما يزال
يصنع المغازل ، وأستطيع سماع صدى صرخته ترن ، وصدى صوت المؤذن
وأرى الرجل الكبير يلتقط قشور البيض المسلوق ، حقاً لم أشعر بهذا
الضيق من قبل ، كانت سلسلة للحظات تعجيزية ، إنها الأمواج الضئيلة
والمستمرة التى تقفز إلى يقظتى (مثل عودة السفن المتوارية) ولكنى الآن
صرت مأخوذاً وكأنى ممسك بمشاعرى المتوهجة ، بالحياة الحقيقية من تلك
اللحظة ، كان شيئاً اعتصره ساحر الأفاعى الروسى بين أصابعى ورفع
عالياً فوق رأسى ، كانت حياتى فى يدي ، لم تكن حياة عابرة ؛ حيث
لا شئ يمر على بعد فى يد شخص آخر ، توقفت عن الشعور بأننى
لست سوى مسافر فى هذا العالم وعلى أن أعيش تفاصيل حياتى .

توقفت فى الساحة متفحصاً اختفاء الضوء التدريجى وهروب الشمس
بعيداً عن الأفق وتساءلت أين سأذهب بعد ؟ ملأ رأسى بالأفكار ، اتصل

بالسيدة كوني " ، هل أستحم ، هل أمضى دون هدف ، أحتسى شيئاً
فى المقهى ، سرت عائداً مرة ثانية فى الشوارع العارية ، حيث يسير الغرباء
وهم يجيئون ويرحلون .

ولجعل مظهرى القذر فى الجلاية المغربية لا تدركه الأبصار ، فكرت
أن أجلس على أرض المقهى فى حى «Ancienne Comedie» ، أخبرت
النادل الذى كان يقف أمامى مرتدياً ثياب عمله حاملاً الصينية فى يد ، وفى
يده الأخرى فوطة . . . " عذراً . . اعطنى قدحاً من الكوكاكولا من فضلك " ،
حاولت تصحيح الموقف مدركاً تشابك الفرنسية والإنكليزية لى . ضحك
النادل وابتعد مقهقهها بشكل عال . صاح أحدهم . . " هل أنت إنكليزى؟ "
أجبت بأننى أمريكى ، استدرت لأسمع صوت قهقهة عالية .

كان الرجل يبدو عربياً ولكن ليس على ما يبدو من شمال إفريقيا ،
" الناس يعتقدون أنك جزائرى " . . أخبرنى ذلك الشخص الغربى ،
" لذلك هم يحاولون الابتعاد عنك " ، لم ألاحظ أن أحداً ابتعد عني ،
" سيسخرون منك إذا عرفوا أنك أمريكى " . . " ماذا؟ " بادرت بسؤاله ،
" لأنهم يكرهون الجزائريين والعرب ، إنهم ممتلئون بالكراهية ، ومظهرك
هنا يسبب لك اللعنة ، أو يجعل الآخرين يهمون بالابتعاد عنك . . إذن
أنت أمريكى . . فإما أن تكون محتالاً أو أحمقاً " ، أجبت بنعم . . ثم
عاد فسألنى . . " أيهما؟ " . . قلت " أحمق " . رد على . . " إننى أعتقد
كذلك ، أنا اسمى بدر . . وأنا من العراق ، إننى أحمق كذلك " . ثم تابع . .
" هل أستطيع مرافقتك؟ " فأومأت برأسى بالموافقة مشيراً بكفى المفتوحة
إلى الكرسي الفارغ ليجلس بقربى . تحرك بدر إلى الأمام حاملاً كأس

الوسكى فى يده ثم قال لى " لماذا ترتدى هذه الملابس الوسخة والتي تفوح منها رائحة العرق ؟ " فأشاح بوجهه عنى مشمئزاً عندما شم رائحتى ، " كنت مع ساحر أفاعى وبعض الخراف فى الشاحنة " ، حدق بى لوهلة طويلة غير مصدقٍ كلامى ، ثم أردف .. " هل أنت مجنون حقاً ؟ دعنى أشتري لك بعض الشراب " ، " لقد طلبت قنينة من الكوكاكولا " ، " أنت بحاجة إلى شراب حقيقى أسكتلندى على الأقل ، النادل لن يجلبها لك ، إلا أنى سأوفرها لك فهو يظنك جزائرى عديم القيمة ، شريراً فى عينيه ، مخلوقاً رخيصاً يتمنى لو يغادر من هنا " ، ضحكت برغم من نظرة الحيرة فى عينيه ، " مالذى دفعك لحال كهذا ؟ " فأجبت بيساطه ، " لأننى مجنون " ، ودهش لأنى أعرف هذه الكلمة "مجنون" .. " مجنون " .. كرر الغريب هذه الكلمة وهو يقهقه بصوت عالٍ . ثم تابع .. " كأنك كنت تعيش فى كهوف تكونت من صخور منحدره مملوءة بالوحوش وقد هزّلتَ ومرضتَ من جرّاء حبك للىلى .. هل تعرف هذه القصة ؟ " " كلا .. لكنى أعرف الاسم فقط " .. " إذن أنت مجنون حقاً " ، إن جهلى بالأدب حرمنى لذة المشاركة فى النقاشات دون اعتبار للغة .. المجنون .. قال بدر .. " اسمع .. المجنون كان قد جن بحب لىلى ، بحب هذه المرأة الشابة والتي ظن أنها كانت جميلة ؛ والتي ربما لم تكن كذلك ولكن أباه ، ولسبب أحرق .. لم يشأ أن يجعله صهره ؛ لأنه كان قد أحب ابنته ؛ وهذا أمر محرج ؛ لأن حبه المجنون كان أشبه بالفضيحة أو الخطيئة مهدداً جميع الأعراف والقيم أو الأسباب التى يعرفها الله وحده . كانت لىلى مجنونة أيضاً بحب قيس ، كان الاثنان مصابين

بالجنون ، ياإلهى .. وهل نجد امرأة كهذه ؟ قد يجن أحد الطرفين كما حصل لى " .

حدقتُ فيه دون رد أو تعليق ، لكن المجنون نظم شعراً جميلاً لا يكتبه إلا المجانين ، جنون الحب بالطبع ، أجبتة نعم ، يقول البعض بأن الاثنين كانا عاشقين لله الذى ابتلى قلوبهما بهذا العشق المجنون ، لا أحد يقدر على الفكاك من وجد الذات الإلهية ، كلنا أسرى مادام الله ابتلاه بحبه .

قلت له إنى أمتلك هذا الشعور ، فأجابنى " ربما أنت تختلف عن الأمريكان الذين نسمع عنهم " ، سألته على الفور " وأنت من أى نوع من العرب ؟ " فأجاب .. " عربى غريب ، شاعر عربى يقضى عطلته فى باريس وعاشق أيضاً ؛ حيث قابلت هنا فتاة من بلجيكا تعمل صحفية اسمها لودنيا .. إنها جميلة " .. " إذن أنت مجنون " قلت له ، " نعم فإن كل من أعرفه يقول ذلك " ، " أنا أدرك ذلك بالتجربة وليس بالعقل ، فكل علاقة بالنسبة لى تنتهى باليأس ، لكنى لا أستطيع أن أبتعد عن عشق النساء ، إنى أعشقهن ، أنا مجنون لكنى لا أرافق الأفاعى والخراف فى حافلة كما فعلت أنت . أنت مجنون حقاً ، حيث إنك أثرت عطفى أيها الأمريكى بهذه الكلمة وارتديت ملابس يكرهها الجميع هنا " .. للوهلة الأولى اعتقدت أن بدر على وشك البكاء وبشكل غريب ، أمسكت بيد العراقي الدافئة دون أن أعى مايعنى ذلك .

حدقنا بالشارع المسمى " Ancienne Camédie " وفى صمت قفز العراقي على قدميه فجأةً ولوّح بيديه بعنف باتجاه الشارع أمام المرأة الشابة

التي كانت تسير صوب المقهى ، لقد اصطدمت دون قصد بعابر سبيل وفي الزحام وبعد نظرة غاضبة لوحت " لودينا " لبدر .. " إنها هي " ، قال لى بدر .. " جئتُ إلى هنا لأراها " ، احمر وجهه وشعر بالزهو وينوع من الحماسة والذهول ، كنت أظن أنه على حق عندما تحدث عن النادل بسبب تلكؤ الأخير فى جلب الكوكاكولا التي طلبتها ؛ حيث ظل واقفاً قرب صندوق الدفع فى الخلف وكلاهما يحدقان ، إنهم حقاً يكرهون الجزائري ، فكرت بهدوء مع نفسى .

بعد قبلة طويلة قال بدر للودينا وهو يعرفنى عليها ، " إنه أمريكى لا أعرف اسمه " ووقفت قائلاً : " توماس " ، ثم أجابنى بالتحية ، " مرحباً " ، فقلت له " أنت تتحدث الإنكليزية " .. فأجابنى .. " لأننى لا أجيد الفرنسية " .

كانت لودينا طويلة كطول بدر ، نحيفة ، صيانية المظهر ، لها شعر قصير بنى غامق ، عيناها واسعتان غامقتان ، كانت بسيطة وساذجة ، ورغم أنى لست خبيراً بالنساء ولا أعرف عنهن مثل معرفتى بالرجال ، فى حقيقة الأمر كنت أجهل مظهر الناس مثلما أجهل تفاصيل الأدب ؛ حيث إن الاثنين يتسبان إلى ذات التسلسل الذى لا يمثل لى أية أهمية ، لم أكن أعير اهتماماً لمظهرى الخارجى " فأنا مجنون " كان التناقض واضحاً بيننا حيث أنا بجلايتى القذرة وشعرى وكذلك وجهى ويدي المعفرتين بالتراب ، بينما كان بدر بسترته التويدية البنية وقميصه الأبيض النظيف وربطة عنقه المقلمة كذلك سرواله الفضفاض الرمادى الفاتح ، أما لودينا فكانت ترتدى تنوره بنية اللون وبلوزة بلون بيجى مفتوحة الرقبة وسترة جلدية ، كان ذلك

فى يوم السابع عشر من الشهر العاشر من عام ١٩٦٣ . . كان لقاء لم نخطط له فيما بيننا فى مدينة باريس ، قال لها بدر وبسطة فيها شىء من الخصوصية " يقفز من مكان إلى آخر مع سحرة الأفاعى والخراف " ، ثم تساءلت لودينا " لماذا فعلت هذا يارجل ؟ " لم أجبها . . ثم حثنى بدر لأخبرها بالذى حصل . . قلت لها . . " حقاً لا أود التحدث " . . " ولكنك صحفية يا حبيبتي وتستطيعين أن تدفعيه إلى الكلام " ، " يهمنى سماع ذلك لكننى يا حبيبى أفضل أن أتركه يفعل ما يرغب فيه " . سألتها . . " هل أنت من بلجيكا ؟ " قالت " نعم . . من بروكسل " . . لم أزر بلجيكا ولا أستطيع التعليق على ذلك .

" لقد اتسخت ملابسى فى ذلك العالم اللزج السيء السمعة ، الكريه للعرب " . . قالها بدر بنبرة غريبة . . " إن بدر سوف يكتب عنك قصيدة " ، قالت لودينا وأكملت " لقد تظاهر فقط بذلك لكى يجعلنى أقابلك فالشعراء أسوأ من الصحفيين ، إنهم يحتفظون بأسرارهم لأنفسهم " . قال بدر " إنها لعبوبة " ثم قبل رقبتها وربت على رأسها وهو يقول لى إنها مشيرة . أثناء ابتعادها عن عشيقها سألتنى لودينا . . " هل تكتب ؟ " " لا " . . قلت لها إننى لا أقرأ الكثير ، قال بدر مقاطعاً . . " إنه يقرأ " ، وبينما جلسا يتحدثان . . بقيت أنا صامتاً .

" اسمع . . أريد أن أقوم بشىء مجنون . . أحرق " ، قال بدر . شعرت بالتعب الشديد ، ولم يصل النادل حتى هذه اللحظة حتى بدأت أرتجف من التعب . . شعرت بالضجر .

" حسناً " قال بدر . . " ربما ليس الليلة فقد يكون غداً " ، " أريد

أن آخذ قارباً فى نهر السين " ، "وماذا عن ذلك ؟" قلتُ له .. " هل
تسألنى أنا ؟ " .. فأجابنى " نعم .. نحن الثلاثة " ، وقاطعتنا لودينا .. "
لماذا نركب القارب " .. كانت تحس بانفعالى وتُبعد نفسها عن ذلك
الاقتراح المفاجئ وغير المناسب ، قلت .. " على المغادرة .. أشعر
بالبرد " ، كان الأمر مجرد عبث وغربة ، وقفنا وحيينا بعضنا ثم تركتهم
فيما كان بدر يداعب يديه أذن لودينا اليمنى . عدتُ أدراجى إلى جادة
فسكونتى .

كنت وحيداً أياماً ولفترة طويلة ، نمتُ بعد أن ترك لي صاحب المنزل شيئاً من البسكت والحساء البارد ، أخذ الملابس القذرة ، وأخيراً ارتديت الملابس الأمريكية تاركاً الشقة ، مشيت في منعطف جادة بونابارت إلى مطعم " بورات " ، تناولت خليط الجبن والبيض وصحن من الخضراوات وكذلك خبزاً حاراً وقهوة داكنة ثم مشيت وقطعت الجسر خلف " نوتردام " شعرت بضعف ساقي وأنا أمشي على الجسر ثم طلبت الشاي في وقتها ، كنت أنا المتحدث إلى الغريب وميزت بدر الذي كان ينظر إلى من خلف مجموعة كثيفة من الورق كان يكتب عليها بالعربية ، «لم يعرفني الآخرون من مظهرى هذا . . وأنت هل عرفتني ؟» ضحككت وقلت له . . " هل تذكر الأمريكى المعفر بالتراب " ، فتح عينيه وهو غير مصدق ، لم لاحظ من قبل أن بدر كان يبدو ساخراً مضحكاً ، وكم كانت أذنيه الكبيرتان تبدوان قبيحتين ، عيناه الصغيرتان مثل (بقّة) وفمه الأخنس . . " لا أحد يتصور هذا المخلوق غير الله " . . ضحككت وأنا أنظر إلى القناع العراقى .

وضعنا يدينا يداً بيد ولكن بقلق . ضحكنا كصديقين قديمين بعد فراق طويل ، " أين كنت . . لقد غبت عنى أسبوعين ؟ " . . قال بدر ،

فسأله " أين صديقتك لودينا ؟ " . . " أنت تذكر اسمها . . أنت أمريكى غريب حتى من دون التراب " ، قلتُ له " أنت لم تميزنى " ، " إن ملابسك قد تغيرت الآن ، إنك تبدو كآى أمريكى غريب عدا كونك نحيفاً ، ياإلهى ، هل تريد أن تقضى على نفسك بامتناعك عن الأكل . . بالصيام ؟ أو أنك تذوى كالمجنون من الوله للمعشوق ؟ " " أنت تذكر (المجنون) " أجاب بدر بحزن تلفه الكآبة " نعم " . فسأله " أين لودينا إذن ؟ " قال " لقد عادت إلى بلجيكا . . أنا آسف فلديها عمل هناك " .

إن تغير لهجة بدر تشير إلى شىء ما ، فلم أحاول استجوابه بعد ذلك .

" أنا الآن أنظم سلسلة من القصائد ، كل واحد مكرسة لامرأة مختلفة نبذتنى " . . قام النادل بوضع قدح الشاى ، بدأت أرتعش بصمت ، قال بدر . . " على الكاتب أن يعيش تجربته ، إننى أغرم بسهولة ، لقد نظرت إلى نظرة مستفحصة فى وجهى ، فى روحى التى تتمرأى فيها مشاعرى . كان لدى الكثير للتعامل مع أشياء عديدة ترتاح إليها روحها ، والتى امتدحته كثيراً فى شعرى " .

" وإن أحببت . . يعنى أن تعوم كثيراً ، وتغرق فى الغوص فى بحار الحب العظيمة . . هل تعرف معنى الكلمة العربية ؟ " أطرقتُ برأسى نعم " استغراق " فأنا أعرف الكلمة . . " أنت أخى إذن " .

أخبرته بمعرفتى فأعادتنى تلك الكلمة إلى عالم آخر كنت قد تماثلت للشفاء منه

" أنت تعرف ما تركت فى مفكرتها (ملاحظة إطراء قاسية ومهينة)
لروح عربية مجروحة ، كنت أستحضرها دائماً فى قلبى ، أو على الأقل فى
صياغة النص الآخر للألم ، لقد قالت أنها تخافنى ، ليس بسبب عنفى
بل كما ذكرت لى .. بسبب إخلاصى الشديد وورغبتى وحماسى العميق
لها . قالت .. كيف أستطيع أن أحبك دون أن أفقد السيطرة على نفسى
كما تفعل أنت ، وهكذا انتهى كل شىء .. وقوبلت بالرفض مرة أخرى
بسبب اندفاعى وتهورى غير المحسوب لكن الحقيقة الواضحة التى وقفت
وراء كل ذلك .. المديح الغريب .. إنى قبيح جداً . حسناً .. أين كنت
أيها الأمريكى فى هذين الأسبوعين؟ " سألتنى وهو يقطع حديثه فجأة ،
قلت " نائماً " ، " مع أهل الكهف ؟ " .. ضحكتُ وقلت «نعم» تماماً
كما نام الشاب الذى يكر فى القرآن بين أحضان الله ينتظر دعوته ليصحو . ،
تذكرت العصا الروحانية للشيخ عبر يدي لتنهال عليها والنافوره التى
طفحت بالماء فى الحديقة المغلقة والأطفال وهم يلعبون بالكرة ويحيطون بى
فى دائرتهم عند الإنتهاء من دروس القرآن وتذكرت " ثمر " .

" لقد كنت مرهقاً إذن ، بعد ذلك العمل القدر مع ساحر الأفاعى
والخراف ، معتبراً ذلك العمل أخطرأ ومجنوناً " . وبمرارة قالها بدر
" مجنون "

أجبتة .. " نعم " . وتابع .. " ليس هناك عربى لديه تجربة
كتجربتك ، لقد حدث لك شىء نادر لا أعرف ماهو بالضبط ولكنه شىء
يجعلك تغامر بحياتك لسبب غير اعتيادى ، فحياتك ليس عادية ، فللمحظة
ما كنت بعيداً عن الحب وأعتقد أنك تستطيع أن تفعل ذلك حقاً عندما

تكون مجنوناً .. هذا إذا كنت تريد أن تعيش الحياة بكل تفاصيلها ..
فعليك أن تصاب بالجنون .

" أنت تعرف هذا الأمر ؟ أليس كذلك ؟ "

" كلا " قلت له .. " لا أعرف . "

" أنظر " .. قال لى ، " أنا لست رجلاً وسيماً ، أعرف حالى ،
فأنا القبح لكنتى أحب الجمال ، أتعرف ماهى الحياة ؟ فحينما نثن فنحن
نعشق .. وبالرغم من تكوم روث الجمال علينا نصر فى الوقت ذاته على
إنسانيتنا ، إنه ويحظه السىء يرغب بعكس ذلك ، إنه الامتحان .. إنه
يمتحن فينا الصبر على البرهان لأنفسنا كوننا بشر أم لا . "

" أنا عربى .. والعرب قوم لهم طبع فظ ، هل تمنع فى أن تدعوه "
أيها الوقح " إنه أسوأ " .. ثم صمت معتقداً وكأنه من الصعب عليه
التوقف عن التفكير بشخصٍ ما .

وتابع بدر .. " إن الله يضع شيئاً من الحكمة فى أفواه الحمقى
والفقراء وكيف لى أن أعرف أكثر من ذلك ؟ " .

" إنه يوحى للأغنياء كذلك .. أن يجمعوا كنوز العالم كما هو الحال
مع الماء حينما يتجمع فى دلو مثقوب ، وفى نهاية المطاف يشترك الإثنان
فى قدر واحد يجمع بين الغنى والفقير .

إنى أصلى لبقائك حياً وأنت فى هذه الحالة من العتمة فيما سيأتى من
حياتك .. أتعانى من الكآبة ؟ ربما ستتقذك امرأة .. أليس بمقدورك ذلك ؟

وهل هذا مطلب صعب ؟ " أجبت " إنى أعتقد ذلك " .

وتابع . . " أنت لست بأمريكى . . ولست عائداً ولن تعود إلى أى بلد . . أنت لست ببشر . . نعم أنت كذلك ، إنى أراك على هذا النحو " . لقد تصافحنا وضحكنا معاً . . واستطرد فى حديثه . . " إنى أعرفك ، أنك بشر تشبهنى ، ربما أنت تعيش للحب لكنك يجب أن تغرم بامرأة الآن ، ربما واحدة قبل أن تموت بسبب هذه الكآبة اللعينة للحياة الروتينية التى حباها بها الله جميعاً " .

" ماذا يمكنك أن تصبح فيما بعد ؟ أستاذاً ؟ نعم . . هكذا أفضل ، حيث لا يمكنك أن تعيش فى عالم الأفاعى والخراف ، إنه سر من الله نفسه حين جعلك تخفى فى صدرك " حقيقتك " وكأنك كنت تبدو فى دراسة شيء ما " .

" إنى أظن أنك تمتلك فرشاة تتعامل مع القداسة أو أن لديك تجربة مسبقة كما يبدو ذلك واضحاً من وجهك " .

" كنت فى مكان يستحيل على الشعراء الوصول إليه ، إنهم يفشلون فى ذلك ، لأنهم مثلنا ، وقعنا نحن جميعاً فى فخ غرورنا ، وقعنا فى فخ غرور كلماتنا القليلة التى منحتنا الحرية دائماً كنا ننتهى بمدح العالم ونريد منه أن يفعل الشيء ذاته " .

انتهيت من احتساء الشاي ، سألتى بدر . . " هل سنذهب فى الحال ؟ "

" كلا . . ساقى بعض الوقت لأننى متعب " .

" أنت بشر ، أعرف أن القداسة شيء يطمح البشر إلى معانقته ،
لكنهم يدفعون ضريبة الألم القاسى للوحدة " .

" أنت بليغ يا بدر " .

" إننى أمتدح .. وذلك ما أعيش لأجله ، " الإطاراء " إن الحب
ينسينى حاجتى للإطراء لفترة ، الحب هو مرشدى للقداسة . إنهن
متماثلات ولدى سبع ، لقد أحببت سبع نساء وكان لكل واحدة سبب مقنع
لنبذى ، كنت أموت فى كل مرة ومعتقداً أنها الأخيرة حيث لن أستطيع
مواجهة العالم ثانية بروح قبيحة عارية ، أستيقظ على شواطئ من الخيال
وأنا أجفف سيل الدموع وأعود ثانية .. أغوص فى الحب .. فى الحقيقة
لقد تعبت من الحب والرومانسية .. كان الحب هو بمثابة الأمل الذى
جعلنى قادراً على اجتياز العتبة للوصول إلى القداسة " .

" تعبتُ من نفسى ، تعبٌ ، فلن أستطيع العوم مرةً أخرى ، وهذا
يخيفنى فى عدم القدرة على كتابة الشعر ثانيةً أو أن يتوقف إحساسى بالحب " .
سأله .. " هل هذه إحدى القصائد التى كتبتها عندما تطلتُ عليك ؟ "

" أكنت تريد أن أقول لك نعم ؟ "

" أجلب لى مزيداً من الشاى الثقيل " .

قال بدر .. " الملائكة لا تشرب ولا تستحى من الثقيل .. وأنا لست
ملاكاً .. ها أنت تعود إلى الحياة ثانيةً " .

قال بدر " إننى أقصد .. أيها النادل .. " كارسون " أعطنى الشاى

والكونياك " . قالها بالفرنسية وتابع " هذا كل ما أعرف التحدث به فى هذه اللغة " . تبادلنا الضحك حول الجهل ، قال لى ذلك بدر وهو يميل بجسده نحو الأمام " أصغى " ثم عادت ملامحه الشديدة الحادة إلى وجهه الشبيه بقناع غريب . " هل تعتقد أن ذلك هو السبب الذى يجعل الشعراء غير قادرين على تعلم اللغات بعد تجاوزهم سن الطفولة ؟ "

تساءلتُ . . . " لماذا " ، مقتنعاً بالمشاهدة والإصغاء لسيل الكلمات . فأكمل . . . " لأن الشعراء حمقى . . لقد رفضنا المبادئ الأولى ، الجنون . . والاستسلام للقداسة " .

" نحن الشعراء نؤمن أن كلماتنا هى المقدسة ، نحن أغبياء بالملامسة ، لا يمكن أن يتعلم شاعر حقيقى لغة شاعر آخر ما لم تفقد لغته خصوصية حياتها أو أنه يحاول أن يبدو أكثر لمعانا وبريقاً مما هو عليه ، لذلك يمكن أن تتعلم اللغات بشكل أسهل ، فأنت ملتصق بلغتك ونفسك ليست حبيسة الكلمات . . أنت حرٌّ . يا إلهى إنى أحسبك ، لكن الجحيم أنا ، من أنا ؟ غبائى حولى وكما تقول الأساطير فقد هبط المسيح فى الجحيم تاركاً آثار أقدامه بين الكفرة . . حتى القلوب عزلاء وهى تضيع ما بين أشباح تحتضر من جراء حب ضائع " ، ثم سألته بعفوية . . " هل هذه قصيدة شعر ؟ "

نظر إلى بدر بخجل مفاجئ . . قائلاً " يا صديقى لقد نسيت اسمك " ، ضحكتُ وأنا أجيبه . . " توماس سبرى " . وتابع قائلاً . . " أعذرني فأنا لست صاحب ذاكرة تسترجع الأسماء ، إنه اسم بسيط ، ربما فليس هو تورية جيدة ، لكنه ينساب أكثر رقة من أسمى ، ب د ر " ، أخذ يتهجأ

اسمه ، " كيف يبدو ذلك لأصدقاء راسخين ، جذور صلبة يتنفس خلالها الإله العليل الدقيقة " .

" أنت تعرف أن الله بروحه العظيمة عندما أراد أن يتنفس عظامي الساكنة ويمنحني نفسي (الروح) ، إنى أعتقد أنه " ، ثم قاطع نفسه فجأة "وَمِنْحَنِ عَوْضاً عَنْ ذَلِكَ الرِّيحِ" ، انفجرت على أثرها ضاحكاً ، ثم استمر .. " كنت أحمل ريح الله .. هل تعرف متى ؟ " أجبت وأنا بالكاد أستطيع التحدث .. بـ " نعم "

قال بدر عندما استراح (بعد ذلك انخفضت ضحكاتنا)

وأكمل بدر : " الله نعمة " ثم قال " لقد انتهيت .. لكن الله يمنحنا ريحاً أخوية كهذه " .

ثم حددنا في وجه بعضنا ضاحكين

قال بدر .. " كم تختلف الإنكليزية عن العربية ، فتحب أن تقول كلمتين غير متصلتين (روح ، ريح) في الواقع ليست هناك علاقة جذرية بينهما (روح و ريح) هنالك تشابه فقط " .

" حتى الطفل العربي يعرف أن الله هو أصل الاثنين " . ثم قربنا كأسينا لنشرب نخب بعضنا .. فرشفت قليلاً من الشاي الثقيل " القير " أما بدر فقد ارتشف الكونياك .

إنها باريس الجميلة في المساء ، فقد كان تمازج الألوان في السماء شيئاً رائعاً ، الأرجواني والبرتقالي الصارخ حيث أواخر الخريف .. الذي

يدحرج الأوراق اليابسة فى الشارع والتي تركها الناس فى الهواء البارد فى
نهر السين ، كل ذلك يذكرنى بالبيت ، رغم أن التشابه غير موجود إلا
أننى شعرت وكأننى فى وطنى .

أعرف ماذا يعنى أن أعود بذاكرتى إلى نهر ميرلاند لكننى أفضل
الإصغاء لذكرياته ، أحبيت المكان فأنا سعيد بوجودى معك فى مثل هذا
المقهى .. نشرب ، نضحك لكننى أنزف لفراق لودينا التى رحلت من أجل
عملها فى بروكسل .

" اللعنة .. يالهى .. مالحيلة حينما نغرق فى الحب ؟ كنت أحبها
لأنها تفعل ما يحلو لها .. إننا نتبادل الحب وبأشد ما يكون عليه الحب ،
خاصةً عندما نكون معاً ، لكنها ذهبت فى تلك السترة الجلدية السخيفة ..
هاربة من المطر " ، ثم انهمرت الدموع من عينيه .

قلت له " إنى آسف يا بدر " ، ماداً له يدى لكى أهدئه

" كلا .. إنها حياتى ، هكذا حال بقية الأشياء ، لقد اعتدت هذا
الوضع كأنى الجحيم " .

توقف .. ثم صاح مناقضاً ما قاله

" كلا ، إنى لم أعتد هذه الحال .. وكيف يمكن لشخص أن يعتاد
لوجه كاذب مثل وجهى أو لروح كالتى أملك " .

ابتسمت وقلت له .. " إنه فى الحقيقة وجه لم أر مثله من قبل " .

" لودينا .. لودينا " كيف أحبيتك .. ثم تأوه بدر بعد ذلك .

وأكمل . . " الأوربية الأولى والأخيرة التى أقع فى غرامها . نحيفة ، بسيطة الملامح ، غير مثيرة كالعربيات بشفاههن الغليظة وصدرهن الممتلىء وأردافهن الضخمة التى يصعب على الرجل الإمساك بهن بكلتا يديه ، يداى كبيرتان بالرغم من أن ماتبقى من أعضاء جسدى صغيرة عدا أنفى وأذنى " ، مد بعد ذلك يده فى الهواء على امتداد أصابعه الناتئة العظام . . كان حقاً يبدو كشىء غريب .

كنت على وشك الضحك إلا أننى لم أفعل .

" كانت تمتلك إرادتها كما أننى أحببت لو بقيت معها أضمت جسدها نحوى لكى أستمع إلى أفكارها . كانت تمتلك صفة متميزة لا تشابه الأخريات السبع . . التشامخ . النظرة الثاقبة والتى لا يمكن التنبؤ بها ، كانت لا تحتاج إلى المديح . . وغير سلبية . وبالتأكيد هى التى كانت تصنع اللقاء لكنها ربما لن تحتفظ به ولم تفعل ذلك ، لكنها إذا فعلت فستكون تماماً معك ، كأن حبها دائماً أشبه بالمخاطرة ، ألا تعتقد أن تركها لى فى هذا الوقت كان عبارة عن رمز أو دلالة ؟ " .

بدأ الخوف عليه فجأة .

قلت له . . " أنا لست بقارئ إشارات " .

" نعم أنت كذلك . . فأنا أصنع الكلمات . . الكلمات للتو . . وأنت تقرأ الإشارات . . يالهى . . كائننى أموت . . لا . . لن يحصل هذا . فأنا لا أعرف شيئاً عن الإشارات أوالموت . . هذا كافٍ لى . . فأنا أعرف وأكاد أشعر به . . لقد أرسلها الله لى لتخبرنى بساعة موتى . . لكنها متى ستأتى ؟ " .

ورفعت كأسى محيياً مرة أخرى .. ورد بدر التحية بكأسه ، قال
" لقد شعرت بالرعب بعدها للحظة . " وضحك باضطراب .. " لقد
قلت بأنك ذكرت بالوطن .. ماذا ؟ "

قلت له .. " نعم من خلال باريس . "

" هل تعلم أننى أمسك بنفسى بعض الأحيان أمام المرأة ، فى العادة
فى المقهى الذى يقع فى شارع الملهاة القديمة .. أذهب .. أستمع ،
خلفنا .. أنظر هناك مرآة أيضاً .. اذهب لترى " (ذهب وأبصر وجهه من
لحظة لأخرى فى الجدار الداخلى أمام المرأة .. نظر بسرعة .. جانباً إلى
نفسه) . ثم قال .. " إنها ككل المرايا الأخريات فى هذه المقاهى ..
سأطل من خلال هذا الشارع على محلات الزهور والنساء العجائز منهن
واليانعات وهن يصففن باقات الزهور ، ثم .. وباستدارة من رأسى كما
لو أن أحداً يتحدث معى من الخلف فأرى وجهى محاطاً بباقات الزهور
المنعكسة فى المرايا . دهشتُ لدمايتى فى ضباب هذا الجمال ، أنفى الطويل
وعيناي الكبيرتان ، أذناى المتهدلتان حتى شاربى يبدو متصلاً بشفتى العليا
كأحد العلامات السيئة الانتشار العديدة على وجهى " .

حاولت أن أضحك إلا أنه كان وجهها لشخص آخر لذا لم أضحك
من الارتباك والشفقة ، ثم تصورت تجمدى هناك بين الزهور فأغلقتُ عينيَّ
ثم فتحتها وهدئتُ .. بدوتُ ميتاً إلا أن أحداً لم يقترب من عينيَّ ثم
اندهشت من شيخوختى بهذه الطريقة .. كيف سأبدو عندما أهرم ؟ أعتقد
أننى سأشبه جدى الآن .. تساءلت .. هل لا يزال حياً ياترى ؟ ثم تذكرتُ
جدتى .. كلا كان ذلك منذ أمد بعيد .. غير أنه ملاً خيالى عندما كنتُ

طفلاً ، كنتُ أحبُّ كبر سنه وهدوءه ، لقد أحبته حيث كان بالنسبة لى شعاراً ورمزاً للتحمل والهدوء وسط البيت الذى كان يعج بالضجيج والهرج والمرج خصوصاً حينما توفى طفلان صغيران لعائلتنا وهما شقيقى الأكبر وأختى ، اللذان ماتا بداء التيفوس ، وقاد جدى موكب التشيع إلى القبر .

كنت أؤمن بشعره الفضى كإيمانى بأى شىء ، كذلك بأوردة يده العميقة ، أؤمن بأنفاسه ، بشخيره ، فى هجعة المساء وبكل شىء يأخذ منه مأخذاً طويلاً حتى تبوله الطويل . . مع الماعز خارج الدار !!
أنصت له دون حركة ، دون تنفس كما كنتُ أنصتُ إلى معلم القرآن فى الكتاب فى مدينة كاظمة فى مراكش .

قال لى بدر : " أعتقد أنك لابد أن تكون كبيراً " . كما لو كان يتلو شيئاً من الكتاب المقدس ولكن هذا الكلام يؤخذ مأخذ حقيقة ثابتة . لايتوجب عليك أن تكون كاتباً إنما عليك أن تكون كجدى ، صغير السن ولايجب أن تجف عروقك ، لابد أن تنظر كى يتضخم قلبك إلى حجم كبير إن كان بوسعك أن تحافظ على صلوات وثيقة . . لكن عليك أن تستعد لجعله صغيراً يشكل قلوباً صغيرة ، فالقلب لابد أن يكون ممتلئاً وقادراً على الفراغ كقلبه ، إنه لم يتحدث عن كل قصص غرامه القديمة لكنه يجعلك تشعر أنك حبه الآن ، كان على الطريق ، أعزل مع حبه الوحيد ، لا أزال أفكر به وبقصائده وأغانيه التى كان يترنم بها دون أن يرددها أو يكتبها له أحد . إن القصائد والقصص القديمة والعشق القديم لا تزال يانعة فوق شفاهه ، كنت أتشبت بعنقه مثل الوشاح كطفل حين كنت أستنشق أنفاسه ،

كان يمسح جبينى بيده وأظنه كان يستعيد أفكاره عندما يفعل ذلك .

وضعت أذنى على عظمة ركبته وسمعت صوت العمر وحلمتُ غير
أنى لا أظن أنى سأصل عمره والصخب الذى سمعته فى أعضائه لن يُسمع
فى أعضائى ولن يمرر الأطفال أصابعهم فوق عروقى .

كنت أتساءل فيما إذا كان يدندن أو يستذكر أو أنه أراد أن يُقاطع أو
يُسمع من قبل أحد .

«أنا بدر من قرية " جيكور " حيث لا أحد يصرف درهماً ليأتى» .

تساءلتُ إن كان يتحدث بصورة غير مباشرة إلىّ أو إنه يحول نبوءتهُ
إلى نفسه . كان غريباً هذا الشاعر العراقى ، شيئاً واحداً تعلمته عن نفسى
فى مراكش ، وهو أنى .. وعلى مدى سنتين كاملتين .. أغلقت هوسى
الا لكلمات كنت قد تعلمتها .

تعليقات قليلة متواضعة وتمارين فى الخط حتى جاء اليوم الذى جنت
وأفقدنى الحب صوابى .

الكاتب لم يكن يثير أى اهتمام حضارى عابر بالنسبة لى ولا " المثقف " .
فقد فضلت " المسافر " ، " الجوال " ، " الحاج " ، إنها تبدو مناسبة
لطبيعتى وحياتى فقد حررتنى من أية حاجة للايضاح ، كان مقدراً على أن
أكون " منصتاً " وكنت أريد فقط أن أنصت الآن إلى هذا العراقى الذى
أشعر وإياه بالسلام . منصت .. لا أكثر ولا أقل ، وإلا فأنى غير مرئى
وليست لدى أية رغبة فى أن أجد نفسى صورة فى مرآة على جدارٍ فى
مقهى .

قال بدر مقاطعاً فكرتى عنه ملوحاً بيده اليمنى للنادل ليملأ أقداحنا :
" مرةً كتبتُ قصيدةً عن الأسباني غارسيا لوركا ولكنى حين أكتب بهذه
الطريقة فلا بد لى أن أحلم أولاً كشاعر وكشخص وظل وكصورة سلبية فى
الظلام وكخطٍ متعرج فى ضوء وليس كثقوب سوداء .

نحن غير كاملين جميعاً ، نحن دوائر منكسرة بالطبيعة ، أقواس
متداخله ، تطلق مكنوناتنا الصغيرة من الضوء الذى يربط الأصدقاء
بالأصدقاء . . مع الأصدقاء عبر الزمن " .

توقف وارتشف من قدح الكونياك ، جلسنا فى صمت وحدقنا فى
أماكن طفولتنا المخبأة فى أنفسنا بعيداً عن أشجار تشرين ، وأحجار اللفندر
الرمادية فى باريس .

قال بدر . . " أنا أفكر فى جيكور ويساتين النخيل فى أبى الخصيب
والقنوات التى ترتوى من مد وجزر شط العرب ومن نهر بويب ، جدولى
الصغير الذى ينساب قرب بيتى ، توماس سيبى . . لابد أن أخبرك أن
نهرى كان جافاً لعدة سنين ويستى عبارة عن كوخ طينى قديم خرب ،
تسكن فى داخله بضع دجاجاتٍ تقاقئ ، أما بعد الشعر فجيكورى " .

تذكرت النهر مرة أخرى وهو بالطبع لا يشبه جيكور ، فى مراکش
لم أشعر بأسى خسارة غيابه ، رغم أنى افتقدته حتى أننى كنت دائم التوق
له كما كان يتوق إلى جيكوره وأدركت عند سماعى كلمة " جيكور "
مكررة فى هذيانه . . الحنين . . أنى ربما كنت فى نفي مؤقت ، شخص
ترك وطنه وكان ضيفاً بين الغرباء وزائراً لحرمت الذاكرة والكرم والصدقة ،

مسافراً يحمل حبال خيامهم مثل " حسن " ، دليلى فى فى المدينة القديمة حين أخبرنى أن ذلك ضمان الضيافة وملجأ لمجرم كان قد تجاوز حدود الضيافة ، إن ذلك ضمانة أمن الغريب طالما كان هناك ، كنت حاملاً حبال خيمتى ذلك المساء مرة أخرى وكان بدر مضيفى فى جيکور وبساتين النخيل فى أبى الخصيب ، بوسعى أن أنظر حين تكلم عن الصحراء المحيطة بنا وهى مقسمة بالقنوات التى تمتلئ وتفريغ فى مد وجزر شط العرب ، شعرت وكأنى فى بلدى مثل بلد قلب الصديق الذى جاءه ضيف مرحب به دون أن يتوقعه فى مأمن تام .

لقد تكشف لى طريقى ، حياتى من قبل أصدقاء جاؤوا من أراضٍ بعيدة حيث أدركوا وقبلوا عدم اكتمالى . . تعجبت ما إذا كان قد شاطرنى بلدى وإن كان بوسعى أن أتحدث عنه . . " توماس " أشعر أن العالم ، ومنذ القدم ملئ بالحزن ، أسمع القصائد القديمة ، لكن فيما يمضى نصف الوقت بالأفكار تأن عضامى فيما تبقى من ذلك .

تحدث بدر بمزيج من الأسى وحسن الفكاهة الغريبة والعصبية ، قال " اسمع " ، فيما كنا معاً قبل فترة نحن الثلاثة فى مقهى " أنشيان كوميدى " . . " قلتُ أريد أن أذهب فى نزهة نهريه " . . سألته . . " هل ذهبتَ ؟ " ، أجاب " كلا . . حاولت لكنها قالت أن ذلك أمراً تافهاً . لأن الحياة مليئة بالجدية ، كان عملها مضمناً ، حيث وقتها محدود وهذه الأخيرة كلمة فظيعة . كى تلتقى بها هناك وقت محدد دائماً ، تماماً كما لو كانت جثة لتلتقى . . كانت تعيش ليومها وأموت يومياً معها ، كنا نملك الحوار فى كل وقت ، إما أن تبادل القبل أو الحوار ، أعلم أن ذلك غباء

غير أنى مضيت بالنقاش على أية حال . أعرف ، لم أكن بحاجة إلى أن
أذهب فى نزهة نهريّة .. أفترض إنها رأت بأنى دائماً أود القيام بشيء غيبى ،
أنا الشاعر .. الشخص الذى يمتلك الزمن ، وهى الصحفية التى لديها
زمنها المحدود دائماً ، لقد ولدتُ كى أنبذ " .

قلت .. " سبع مرات " .

قال بدر .. " أسمع أنا لا أزال أود الذهاب الآن أكثر من أى وقت
مضى ، فالوقت أصبح أكثر برودةً وأكثر حزناً .. هل تنظم إلى ؟ " .
هذه المرة وافقت .. ربما لحاجتى للطيش أو بشكل أدق .. للصداقه .

تركنا المقهى ومشينا فى طريق ضيق هى " جادة أندريه دوزارت " ولايزال بوسعى أن أراه وأسمع صوته الحاد أحياناً والناعم أحياناً أخرى ، إنه صوت ملح .

ياإلهى . هنا جاء هذا الجزائرى الأفاق مرة أخرى مع كلبه ال " بودل " نصف الميت ، القدر ، ابتعدت عن الرجل عندما اندفع نحونا كما لو لم يكن يرانا .

إن كل من يراه يبتعد ، أمس جلس على بعد ثلاث مقاعد على يمينى فى المقهى ، وكلبه بجانبه على الكرسي ، كان يزاول عمله الروتينى الغريب فى جرّ أذنّى الكلب البائس ووضع أصبعه فى شرجه ليجعله يقفز ويكشر عن أنيابه . إنه غالباً ما ينظر إلينا كما لو أن أحداً ما سيعترض ، كانت لديه سكين ، أبصرته يهدد كلبه بها منتظراً تدخل الآخرين .

مضينا عبر الشارع ونظرنا فى نوافذ المطعم والحوانيت ودكاكين الحلوى . تحدث مرة أخرى لكن هذه المرة أدركتُ أنه كان يتحدث كى لا يسمع بل ليمارس فعل الكلام كما لو كان الأخير حالة للتنفس ، كان يتحدث عن

الشعر والوطن أو شيء كهذا ، كنت قد سمعته من قبل .

" قريتى مكان موحش " مكان تربته لا تنبت شيئاً . . حيث لا أحد يتحدث . وحتى الشعر ممزق من الصمت . صوت ليس بوسع أحد أن يسمعه .

إن الوزن العربى الذى يمضى عبر رسم كلماته كان شقيماً ، أتذكر حتى وإن كانت الكلمات تحمل نصف معنى .

لقد استطرد بالإنكليزية إلى موضوع المال الذى يبدو وقد صرف الكثير منه فى المقاهى ولم يبق منه سوى القليل .

قال . . " الشيء الوحيد الذى لا أبالى به هو المال . أنه هنا ، ثم يختفى ويأتى مرة أخرى ، إنه ليس ملكى ولا أكتنزه بل لأفقده ، لم أجد بعد نمط الحياة الذى يمكننى من فهم فكر أى إنسان يكرس جلّ حياته للمال . الضحية حظيت بانتقامها . . والقاتل هو من أراد أن يقتل ويقتل ويقتل " .

" لكنه هل المال كافٍ لجعل هذه النار مستعرة فى الإنسان "

كانت كلماته فى كلا اللغتين قد أصبحت بالنسبة لى أكثر إيقاعاً من الحس وربما بالنسبة له أيضاً .

اقترب بوجهه من وجهى . " أترى تلك المرأة القادمة نحونا ؟ " قال ذلك دون أن يخفض صوته واستمر بالعربية يروى ما كنا نراه حقاً .

" الآن أعرف أنى مازلت موجوداً ، لأننى فى الثوانى الثلاثين التالية سأكون فى سطوتها على الأقل طالما تأخذها تعبر الشارع بينطالها " الجيتز "

وقميصها المشطب قائلةً " كلا . . فتش أيضاً ، أنا أعرف ذلك " حقيبتها معلقة على كتفها وهي تضغط على ثديها الأيمن بينما مؤخرتها الصغيره منحسرة فى بنطالها " أجيتر " .

"هل ستنظر إلى أم لآ ؟" كان صامتاً عندما مرت به . " آه . . حسنا " .

استدردنا يساراً إلى جادة أندريه دوزارت إلى عمر ضيق حيث كانت هناك علامة لفندق " فلوف " مضاءة بمصابيح خضراء صغيرة .

" فى لحظة ستمر برجلين خلف عربة وسوف أعرف أنى فى بلدى تقريباً " .

فى الواقع كنا هناك وكان ذلك المكان عبارة عن ساحة مسيجة لعلب القمامة يشغلها عاملان يجلسان فى الداخل يمضغان الطعام المقدم فى طبق ورقى . قال بدر بسخرية . فى إحدى الليالى كنتُ عائداً إلى البيت وسمعت كلمة " فكة " تقذف فى وجهى بحزن من قبل أحدهم ، وقفتُ وأعطيته بعض النقود ، فصاح الآخر فجأة بى " خراء . . عربى " ثم بال على بنطالى . لذا إما أن تسرع أو سيقولون لك " فكة . . خراء . . أمريكى " ثم يتبولون عليك .

وقفنا أمام باب الفندق وقال أنه يريد الدخول لي جلب معطفاً يتدفأ به ليخرج بعد ذلك إلى المرفأ .

قلتُ حسناً وانتظرت أبصر الرجال بحذرٍ عبر الممر وراء الساحة بينما اختفى هو على سلم النهاية الأخرى من الممر .

كان المالك يجلس على مقعد عالٍ في مكتب الاستقبال وهو رجلٌ ضخم ذو شعر أسود منسدل ووجه متورد يضع مازراً أزرق على خصره ، نظر من فوق جريدته إلى وهز برأسه ثم نظر إلى الخلف .

عندما عاد بدر عبر الممر بمعطف ، تبادل هو والمالك عبارة " صباح الخير " ثم مضينا باتجاه السين .

من بين كل الأشياء المجنونة التي كان بوسعنا أن نقوم بها ذلك اليوم ، أدركتُ ورغم فوات الأوان وكأني قد سُحبت من قبله إلى رغبة قديمه لرفقة في طيش سياحي ، كان مندفعاً وكنت أكتشف ما كنت أعنى أن يتلبس بي .

حين وصلنا إلى جسر أينما المبهرج ، رأينا كل الزوارق الزجاجية المربوطة معاً في المرفأ ، لم يحدث شيء ، ولأول وهلة لم نبصر أحداً . نزلنا إلى الرصيف " إنه نزول إلى الآلهة " هكذا دعاه بدر حيث قدمنا إلى بيت صغير وهو ليس أكبر من كوخ شرقي على شاطئ النهر ، إنه بيت صاحب الزورق .

الذي كان ينتظرنا ليدلنا إلى «نهر الموت» ، كان بدر يسخر بالطبع ، كان الرجل يجلس في الداخل على كرسى قرب موقد الكيروسين ويقرأ صحيفة رومانية ، تحشدنا باندفاع حيث قال شيئاً ساخراً لنا مثل " شكراً لمشارككم البيت معي " . لم يأبه بدر حيث كان للرجل صورة امرأة عارية ملصقة على إحدى الجدران الخشبية ، وعلى الموقد كان يغلي بعض الماء في إناء صغير للشاي ، هذا الرجل مجنوناً . فقد كان من المحتمل أن يحترق البيت أو ينفجر ويسممه بالدخان . " ماذا عساكم تفعلون هنا ؟

وماذا تريدون ؟ .

قال بدر بفرنسيته الراككة " هل بوسعك أن تأخذنا إلى النهر ؟ فأجابه الرجل " الزوارق لا تذهب فهناك إضراب " .

سأل بدر " ألا يوجد ولا حتى زورق واحد ؟ "

ردّ . . . " زورق واحد ؟ "

كانت وجوهنا متورة من لهيب الموقد ، وفجأة بدا الرجل ميالاً إلى إكرامنا ، قال . . . " هناك واحد فى نهاية الرصيف " ثم فتح الباب وأشار بإصبعه الأيسر نحو أصغر الزوارق .

" جيد " قلنا سويةً . . . " حسناً . . . كم يكلف ذلك ؟ "

وبعد أن فكر الرجل جاءنا برقم عن الوقود وعن وقته وعن المخاطرة التى سيتحملها فدرس بدر بحفنة نقود فى يده ، لم يستهج تماماً بينما ارتدى معطفه ونظر معنا إلى المرأة السعارية التى ترافقه وجلدها الأبرش ثم قادنا إلى الزورق .

أكد بدر لصاحب الزورق أننا لسنا بحاجة إلى نزهة عبر العصور ولا إلى ذكريات النصب ، فنحن مسافران جاهلان قررا أن يشاهدا بأنفسهما ما لم يشاهد من قبل . فلا حاجة بنا لمشاهدة البناية الرومانية ولا الزخرفة الغوطية ولا فرنسية عصر النهضة ولا الفن الكلاسيكى ولا قصر الشرف ولا آثار الثورة ولا الأسلوب الميكانيكى ولا أى شىء حديث ، نحن فقط نريد أن ندلف إلى السين معه هذا كل شىء .

كان الزورق صغيراً . عبارة عن قارب بخارى صنع ليس للسياحة بل مجرد زورق للتفتيش والوصول بسرعة إلى أى مكان بمساعدة الزوارق والجنادب السياحية ، إنه زورق بكابينة دائمة قائمه للملاح ومساحة لا تكفى أحداً ولا لشخصين آخرين .

بدت المدينة من الماء وكأنها شىء من الخيال ، كأنها تنهال علينا من أرصفة المرفأ مع طوابق البناء الأرضيه التى بدت مقطوعة ، دون ذلك مددنا أرجلنا فى الماء ، قال بدر . . " هذا الشعور الذى أريده ، أى أن الماء يقوم بتدليك أرجلنا وسيقاننا فى دواماته وشوائبه الطينيه ، حاولت المحافظة على توازنى عندما قمت بتحريك قدمى إلى الأمام والخلف واقفاً خلف صاحب الزورق الذى كان صامتاً وقدماه ثابتتان كالصخر .

كان من الصعب أن نعرف بأى اتجاه ذهبنا حيث حددنا بالأبراج والقباب ودرنا حول الجزر محدقين فى جدران المدينة وسكانها ، كنت مرتاباً وقلما كنت متخيلاً ، قال بدر مصرأ " مدينة باردة رمادية ، وطن الأحياء ، قبر الأموات الذين يريدون أن يمرؤا من المدينة المرثية إلى مدينة غير مرثية ، يرقبون ولا يبصرونى حيث أتلأشى " . . قال . . " السفر مع صديق مثل "كلكامش وأنكىدو" هو خوض حكاية حقيقية من أرض الفرات ودجلة الحبيبة " .

" أعتقد وأؤمن أن كلينا راحلان ، كانت تلك هى الطريقة التى وجدها ليفصل نفسه ويفصلنى عن باريس ثم أنها وبعد كل ذلك ، لم تكن سوى مسألة اختيار الوقت " .

كنتُ هادئاً أثناء ذلك ، شعرت بالسلام داخل زورقنا ، وكان هو يشاركنى الشعور نفسه . كان أمراً ليس بذى أهمية ولكنه كان كذلك ، حكيماً وموجهاً .

حين نزلنا من القارب تحدث دون مبالاة عن أشياء رأيناها ، اللوفر ، نوتردام ، بيوت جزيرة سان لويس ، لقد تمتعت بثرثرته حقاً واعتقد أنه لم يلاحظ صمتى عبر الطريق الذى سلكناه إلى موقع سياحتنا التالى .

ذهبنا إلى برج أيفل ، وفى إحدى قواعده مضينا نحو مصعد البرج وقد حملنا فى أيادينا فناجين القهوة التى أخذناها من البائع .

رغم سنواتى التى قضيتها فى باريس ، لم أصعد البرج قط كذلك هو حيث أننى كنت أجنب الارتفاعات لكنه كان مصمماً على تجربة ذلك ، متحدثاً بجنون حيث أنه هو المسؤول فقط عن مجازفته .

قال . " إننا صديقان نخرج إلى غابة الأرز لنقتل " همبابا " المرعب والذى يتمثل الآن بشكل برج أيفل . ليتنا كنا نجوب العالم عبر الزمن وليس فقط الإبحار عبر باريس فى شهر تشرين " .

ارتفعنا عالياً وكلانا سكب قهوته ، أللعة . حين وصلنا الطابق الثانى الكبير ، مشينا وهو يخبرنى بحاجته للتبول ، استدرنا حول البرج وهو يسائل الآخرين عن مكان دورة المياه . . قال بالإنكليزية مشيراً نحوى : " إن صديقى بحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه " ، وحين لم يجد المكان ذهب إلى كشك للحلى الكاذبة بعد أن تمنع بالتذكارات القليلة باهتمام يبدو ظاهرياً ، بال إلى الجانب دون أن يلحظه بائع الكشك . قال لى . .

" إني رجل فج . . أستقتل حتى أتبول في مكان يحذر فيه ذلك ، لكنى ، وعلى كل حال ، صديق جيد ولست بالرجل السيء " .

بعد ذلك أمسكت بأحد المقابض ونظرت نحو الأسفل . . قال فجأة وهو يرتجف . . " إني أخاف الارتفاعات " . . وتوسل بي للرجوع إلى الحافه ، قلت مصعوقاً " لماذا أردت المجيء إلى هنا ؟ " . . لم يتكلم بل جذبني من المقبض وعدنا إلى المصعد .

في حقيقة الأمر كنت مبتهجاً بالعلو والشعور بالحرية وإن كان حقيقة أم خيالاً في حين كان هو يخشى الاثنين حين نزلنا ولا مست قدماه في الأرض ، شكر بجد الله الذي دعا إبراهيم أبو المؤمنين أن يبنى ضريحاً على الأرض وليس في الهواء ، الله ، الله الذي فجر المياه في الأرض وحدد الأرض المقدسة . . والموت ذاته . . شكراً لله على الأرض وعلى الجسد الفاني وعلى العظام وجلمود الصخر وعلى حق اللجوء . . وشكراً على كل شيء إلا هذا " . . ويعنى برج أيفل .

تجولنا من " همبابا " الرهيب ثم ابتعدنا عن النهر وأضعنا أنفسنا في ساحات وشوارع أكثر أمناً . بالنسبة لأي فرد من الذين يعرفونني والذين سيقراون ذلك في يوم ما ، فبوسعى أن أقول لهم . . إن طريقنا كان غير مباشر وعينا صديقي لاتزالان تنظران نحو الأسفل ، وشفته تترتشان بعصية وبكلمات غير مفهومة ، بينما عيناى تنظران إلى الأعلى وشفاهى كانت مغلقة بالصمت .

قرأ أسماء الشوارع . جادة دوغرينيل إلى اليمين ، جادة بوركون ثم إلى اليسار جادة دوغرينيل ، ثم إلى اليمين جادة دوباك حيث أعلن أنه منهك ويحتاج للجلوس .

سأله .. " هل أنت على مايرام ؟ " .. لقد بدا حقاً مريضاً وكان يعرج أويجر ساقية قليلاً .

قال بعصية .. " نعم أنا تعب . كاحلى وقدماي .. اللعنة " .
تلفتُ ووجدت لنا طريقاً إلى الكنيسة عبر الشارع ، كان هذا هو الموقع الثالث في سياحتنا وهي كنيسة مكرمة لشيء يدعى " الشارة المعجزة " التي صممتها قديسة ما وهي راهبة تدعى كاثرين لابوريه ، لا نعرف عنها شيئاً غير ذلك . إن ما يهم هو أن الكنيسة كانت مكاناً للراحة ذات مقاعد حيث الناس يأتون ويذهبون ، والراهبات بأغطية الرأس البيضاء وكأنهن أجنحة البجع ، بينما كان الشيوخ يحملون الشارات والمسابح لأجل التبرك وغيرهم .. آخرون .

قال بدر أن بوسعه أن يخبرهم أن فرسانهم المتوحشين الكبار جاؤوا بفكرة المسبحة منا نحن المسلمون ، لكن مافائدة إحياء الحروب الصليبية ؟ إضافةً إلى ذلك قد نكون نحن أيضاً قد أخذناها من ناس آخرين .

دخلنا الكنيسة وجلسنا على مسند إحدى المصاطب .. كانت الكنيسة قد أزعجته بأيقوناتها وتماثيلها وألوانها غير المنسجمه . لكن الإله هو أله المسيحيين أيضاً وهو لا بد أن يعرف أن هناك لحظات هلع كهذه .

بدأ الناس حولنا يرتلون مع موسيقى صاحبة يقودهم شخص ما لم يتسنى لنا رؤيته .

وبعدم التزامي .. أردت صمت الله العظيم .. وفي النهاية صمتوا مرةً أخرى .

سألنى بهدوء . . . " ماذا تعتقد ؟ "

قلت . . . " عن ماذا ؟ "

" عن ذلك " . . .

سالت متعمداً البلادة . . . " ذلك ماذا ؟ "

" هذه الكنيسة . . . هذا المكان . . . كل ذلك " .

" كل ذلك ؟ "

ثم سخط منى حيث أنى لم أشأ أن أعلق كضيفٍ على أية دار للعبادة .
قلت . . . " حسناً " .

قال . . . " حسناً ؟ ألسنتُ أنت مسلماً . . . قليلاً على الأقل ؟ يا لهي . . .
سندخل فى نقاش ، إن صداقتنا لن تدوم أزاء شئ كهذا " .

إعترفتُ . . . " نعم " . . . محاولاً تجنب ذلك . . . " لكنى كمسلم لا بد من
احترام عبادة الآخرين حيث أنهم يقدسوا ربّ المؤمنين وصديق الأصدقاء " .
ابتسم كما لو أنه أدرك أننى مجرد شاب ساذج أو يريد التملص دون
محاولة الإساءة إليه .

" هل تعرف أن هناك جسدان قرب المذبح فى الأمام ؟ صدقنى لقد
رأيتهما حين دخلت " . . . كان يحثنى هذا العربى المشاكس وشعرت
بالغثيان .

قال ، وبإصرار : " حقاً كانت هناك صور خارج جسدَى الراهبات
عند المذبح " .

قلتُ . . . " جثث ؟ " بدأت بالانكماش والتمارض ، كان هناك حشد من الناس قد تشكل على جميع جوانب المذبح وهى تحقق ، كنت متردداً لكنه أصر ، شعرت بعدم الراحة وأنا أقترّب من الموتى المعروضين للنظر ، كنتُ قد عرفت من زيارتى للنوتردام أن المسيحيين كانوا يحتفظون بمفاصل العظام وعظام الساق والشعر كآثار مقدسه للقديسين لكنى لم أكن أعرف أنهم يحتفظون بأجساد الراهبات العجائز خلف الزجاج .

سرنا فى خط على يسار الكنيسة ومررنا بتابوتين ذى جانبين زجاجيين ، نظرت خلالها برعب ثم أغمضت عيناي لدهشة صديقى ، الراهبتان العجوزان بدتا حقيقتان وبدى جلدهما حقيقياً لكنه عولج بطريقة غير طبيعیه ، تساءلت فيما إذا كانتا قد اشتاقتا إلى قبريهما ، فيالرهبة وعدم وقار عدم دفنهما ، فاللحم الذى يشيخ يرغب بالموت والتوارى ، هكذا ما كنت أعرف أو أؤمن غريزياً ، لم يكن منظرأ سعيداً لكننى شعرت بالإشمئزاز أكثر من الحزن وعندما عدنا إلى مقعدنا أو ربما إلى مقعد آخر حيث أن مقاعدنا قد شغلت من قبل آخرين .

صليتُ لأجل ستار يوضع فوق الجثث ، أجل إلى ستار ، إلى احترام لتواضعها ، شعرت بالأسى للقديسات اللاتى بدت وجوههن تعبته وغير سعيدة بسبب هذا العرض . لكن ياترى ماذا كان يعتقد صاحبى العربى ؟ فنحن لم نتكلم عن ذلك حينما خرجنا ومضينا إلى حى أنشيان كوميدى التى نعرفها جيداً .

18

كما شعرت ذلك اليوم فإن كلينا سيغادر باريس ، التقينا لأوقات قليلة مرة أخرى ولكن بصورة موجزة تحدث خلالها عن الشعراء الأمريكان الذين شعر بالصلة الروحية معهم ، قال .. ت.س. إليوت والأرض اليباب كذلك الرباعيات العظيمة ، ثم قبلة أميلي دكنسن وهرمان ميلفل من مساجوستس ، ربما سأذهب هناك ذات يوم واكتشف لنفسي .

قلت له عندئذ .. " ربما سأذهب أنا إلى قريتك جيكور ذات يوم " . كنت متأكدًا أنه يعرف الكثير عن الشعراء وعن مساجوستس وعما نفعله ولا نفعله أكثر مني . عند هذه النقطة .. كانت جيكور اسماً سحرياً على شفتيه .

سألني .. " متى ستذهب إلى بلدك ؟ " .

قلت " حالا .. وأنت ؟ " .

" حالا " .

يبدو أن ذلك قد أنهى كل شيء .

أخبرته عن تجربة النهر عبر القصب وأخبرني .. " لا بد لك أنت

تلتقى الرجل العجوز مرة أخرى وتتعلم كيف تتعلق برجليك بالقلوب . .
قلت . . « كان ذلك قبل خمسة عشر سنة . وربما قد مات الآن » .

« إنه لا يزال يعيش فى قلبك » .

« مثل جدك الذى يحيا فيك » .

قال . . « نعم » .

كان مساؤنا الأخير معاً بعد أن أنهينا ملاحظتنا الكبيره فى مقهىانا المفضل ،
جادة Ancienne Comedie . . مشينا على طول جادة أندريه دوزارت
إلى نهر السين ، جلسنا لبعض الوقت على مصطبة قرب كنيسة القديس
جوليان لبوفر . لم أدهش كثيراً بما سألت لكننى قد انتظرت طويلاً لكى
أسأل أى شخص . . فسألته . . « ماعساى أن أفعل بحياتى ؟ »

كان مندهشاً أيضاً . هكذا اعتقدت من صمته العميق .

« أنا لست رجلاً حكيماً كما تعرف ، إن الله لم يخلقنى كى أنصح
البشر مما يبرهن على حكمة الله . . لكنى نوعاً ما . . أظن وكأنى أعرفك
يا صديقى ، أعتقد أنك تشبه المساكين الجوالين الفقراء عندنا ، فهنا أنت
متصالح مع نفسك إن لم تكن سعيداً لوحدك . أشبه بناسكٍ أو شىء على
هذا النحو بالنسبة للآخرين .

إنك مسافر عبر العالم ، ضيف ، صديق ، شخص يعيش بصمت
وليس إنساناً يجادل . . ربما تكون شاهداً على شىء ما ، أليس بوسعى
مساعدتك أكثر مما أفعل الآن ؟ »

لم أجب رداً على ذلك

فى الصبح ، كان على بدر المغادرة قبل يوم من رحيلى فأصررت على توديعه فى المطار ، كان مسروراً لكن مرتبك ، ركب المترو إلى منطقة أيروكار أو أنفالىد بصمت نسى وسط الجمهرة المنطلقة ساعة إنتهاء الدوام الصباحية من يوم الإثنين المعتاد . كانت سفره طويلة حافلة وشاقة ومملة من المدينة إلة مطار أورلى .

قال . . . " طويلة هى الرحلة التى خلفناها ورائنا كذلك تلك التى أمامنا كما قال شعراؤنا الأقدمون . . لقد تحدث عن " الركوب فى ظل طريق الشمس العراقى القديم " وظننت أنه بدأ يتأمل عودته إلى جيکور .

وفى المطار وقفنا فى مكان ليس بعيد لكنه كان مناسباً للحصول على مقعد فى صالة المدخنين حيث لم يكن قد تحرر من المتعة والألم بعكسى تماماً حيث أنى لم أدخن طيلة حياتى .

وبعد أن اجتزنا الجمارك صعدنا السلم ونظرنا إلى الطائرات من خلال نافذة زجاجية هائلة .

إن مصاحبتى إياه لم تكن لتأخذ طابعاً احتفالياً بل إنها أصبحت مناسبة عندهما أهدانى كتاباً يتضمن قصائده بالعربية . أخبرنى أنه كتاب يمثل روحه بعد أن وقعته بالعربية . . إلى بن توماس ، صديقى العزيز . . . " بدر .

تأثرتُ بعمقٍ لكنى لم أكن أملك شيئاً لأمنحه مقابل ذلك .

فأنا الشاب الذى لم يكتب أو يحقق شيئاً بعد ، مسك كتفى بقوة وهو
يعانقنى قبل أن يحين وقت نزوله إلى الممر ليدخل الطائرة .
قلتُ له " .. بدر .. اهدس باسمى عندما تقف قرب جيكورك " ..
فقال بغمزة " وأنت افعل الشيء ذاته عندما تتعلق بالمقلوب " .
راقبت الطائرة وهى تقلع ثم عدتُ مدركاً أنه كان يتعين على أن أبدأ
حياتى مرةً أخرى كما لو أننى لم أبدأها أبداً .
كانت الرحلة إلى باريس بالباص طويلة ومملة . كنتُ أتطلع مرةً أخرى
إلى طريق الشمس .

الخاتمة

زرت العراق وبالذات قرية جيكور ولكن بعد سنوات عدة وبالتحديد
تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٨٧

كان بدر الذى مات فى مستشفى فى الكويت بعد صراع طويل مع
مرض السل عام ١٩٦٤ ، قد كرم كواحد من أعظم الشعراء المعاصرين فى
العراق حيث أقامت الحكومة له تمثالا بحجم كبير ثبت فوق منصة تطل على
شط العرب ملتقى الفرات ودجلة .

كانت أذنا بدر كبيرتين وشفثاه غليظتين وعيناه جاحظتين ، ولو نهض
من إغفائه الطويلة فى قبره لكان يكيل اللعنة على تكريم كهذا .

كنت قد تسلمت فى حينها دعوة ، وجهت لى لإزاحة الستار عن
النصب لأن من بين كتبه كان «دفتر مذكرات» فى باريس والتى ذكرنى فيها
كصديق مقرب له .

جمعت أجسرة السفر حيث قمت برحلة ذكرت فيها اسمه لشواطئ
ميرلاند وفى المنطقة التى يلتقى فيها نهرا جوتبالك وتويجاها .

لم يكن هناك نصب يقام بل كانت هناك أصوات تسمع . وماتزال
تسمع .

المشروع القومي للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت. أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مابهو بانيكار	ت. أحمد فؤاد بليغ
التراث المسروق	جورج جيمس	ت. شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوف	ت. أحمد الحصري
ثريا في عيبوبة	إسماعيل فصيح	ت. محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت. سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت. يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت. مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت. محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت. محمد معصم وعبد الجليل الأزني وعمر طي
مختارات	فيسوفا شيموريسكا	ت. هاء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونستون وايريس هرايل	ت. أحمد محمود
بيانة الساميين	روبرتسن سميث	ت. عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان بويل	ت. حسن المودن
الحركات الفنية	إيوارد لويس سميث	ت. أشرف رفيق عفيفي
أثنية السوداء	مارتن برنال	ت. لطفي عبد الوهاب / فاروق القلضي / حسي
		الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت. محمد مصطفى بدوي
الشعر الساني في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت. طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت. نعيم عطية
قصة العلم	ج. ح. كراوثر	ت. يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرجي	ت. ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت. سيد أحمد علي الناصري
تحلى الجميل	هانر جيورج حادامر	ت. سعيد توفيق
طلال المستقبل	باتريك بارندر	ت. بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت. إبراهيم الدسوقي شتا
بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت. أحمد محمد حسين هيكل
التنوع الشري الخلاق	مقالات	ت. نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت. منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت. بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط ٢)	ك. مابهو بانيكار	ت. أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاحيه - كلود كاين	ت. عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	بيفيد روس	ت. مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا العربية	أ. ج. هويكنز	ت. أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت. د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . بيكسون	ت . خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	ألن تورين	ت . أنور معيث
الإعريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عبد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت . عطف أحمد / إبراهيم فتحى / مصود ملحد
عالم ماك	بنجامين بارير	ت . أحمد محمود
الذهب المزوج	أوكتافيو پاث	ت . المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت . مارلين تابرز
التراث المغنود	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت . أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت . محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتي
الإسلام فى البلقان	ه . ت . نوريس	ت . عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت . محمد برادة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانويبا وخ . م بينياليستى	ت . محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت . لطفى فطيم وعادل بمرdash
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجنون	ت . مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت . محسن مصيلحى
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت . على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	مديريكو غرسية لوركا	ت . محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	مديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد . ماهر البطوطى
مسرحيتان	مديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت . صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت . رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدي أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	قالتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
العلم الإسلامى فى أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكتز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراحم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكاز وانواء التطيل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد رويرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس نوسبونسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم العمرى
الجماعات المتخيلة	بنديكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العمانى
الابتلاء بالغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيننز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ترياتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
الإسبانوأمرىكى المعاصر	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
الحب الأول والصحبة	أنطونيو بويرو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
مختارات من المسرح الإسبانى	قصص مختارة	ت : إيوار الخراط
ثلاث زنبقات ووردة	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
هوية فرنسا	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
الهم الإنسانى والانتزاز الصهيونى	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
تاريخ السينما العالمية	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
مساطة العولة	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحو
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
السياسة والتسامح	عبد الوهاب المؤتب	ت : محمد بنيس
قبر ابن عربى يليه آباء	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
أوبرا ماهوجنى	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
مدخل إلى النص الجامع	د. ماريا خيسوس روبيرامتى	ت : د. أشرف على دعور
الأدب الأندلسى		

ت - محمد عبد الله الجعدي	نخبة	صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
ت - محمود علي مكي	مجموعة من النقاد	ثلاث دراسات عن الشعر الأنثوسي
ت : هاشم أحمد محمد	جون بولوك وعادل ترويش	حروب المياه
ت - منى قطان	حسنة بيجوم	النساء في العالم النامي
ت - ريهام حسين إبراهيم	فرانسيس هيندسون	المرأة والجريمة
ت - إكرام يوسف	أرلين علوي ماكليود	الاحتجاج الهادي
ت - أحمد حسان	سادى بلانت	راية التمرد
ت - نسيم مجلى	وول شوينكا	مسرحيات حصاد كرنجى وسكان المستنقع
ت - سميرة رمضان	فرجينيا وولف	غرفة تخص المرأة وحده
ت - نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	امرأة مختلفة (درية شفيق)
ت - منى إبراهيم ، وهالة كمال	ليلي أحمد	المرأة والجنوسة في الإسلام
ت - ليس النقاش	يث بارون	البهصة النسائية في مصر
ت - بإشراف/ رؤوف عباس	أميرة الأزهرى سنيل	النساء والأسرة وقوانين الطلاق
ت - نخبة من المترجمين	ليلي أبو لغد	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
ت - محمد الجندى ، وإيرابيل كمال	فاطمة موسى	الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية
ت - منيرة كروان	جوزيف فوجت	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
ت - أنور محمد إبراهيم	نيزل الكسندر وفنابولينا	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
ت - أحمد فؤاد بليغ	جون جراى	الفجر الكاذب
ت - سمحه الخولى	سيدريك ثورپ ديفي	التحليل الموسيقى
ت - عبد الوهاب علوب	فولفانج إيسر	عمل القراءة
ت - بشير السباعي	صفاء فتحي	إرهاب
ت - أميرة حسن نويرة	سوزان باسنيت	الأدب المقارن
ت - محمد أبو العطا وأخرون	ماريا دولورس أسيس جاروت	الرواية الإسبانية المعاصرة
ت - شوقي حلال	أندرية جوندر فرائك	الشرق يصعد ثانية
ت - لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)
ت - عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون	ثقافة العولة
ت - طلعت الشايب	طارق على	الخوف من المرايا
ت - أحمد محمود	باري ج. كيمب	تشريح حضارة
ت - ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	المختار من نقد ت. س. إليوت
ت - سحر توفيق	كينيث كونو	فلاحو الباشا
ت - كاميليا صبحي	جوزيف ماري مواريه	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
ت - وجيه سمعان عبد المسيح	إيفيلينا تاروني	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
ت - أسامة إسبر	عاطف فضول	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس
ت - أمل الجبوري	هربرت ميسن	حيث تلقى الأنهار

(زحت المطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	من المسرح الإشبانى المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة	خطبة الإدانة الطويلة
الولاية	تاريخ النقد الأنبى الحديث (الجزء الرابع)
المدارس الجمالية الكبرى	حكایات ثعلب
الإسكندرية . تاريخ ودليل	شامبوليون (حياة من نور)
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	الحورية الهاربة
بارسيفال	الإسلام فى السودان
اثننا عشرة مسرحية يونانية	العربى فى الألب الإسراتلى
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	آلة الطبيعة
عدالة الهنود	ضحایا التنمية
چان كوكتو على شاشة السينما	المسرح الإشبانى فى القرن السابع عشر
الأرضة	أیدیولوجى
غرام الفراعة	تاريخ الكنيسة
بحر مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالحة	فن الرواية
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	ما بعد المعلومات
صاحبة اللوكاندة	الورقة الحمراء
التجربة الإغريقية حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	موت أرتيميد كروث
العنف والنومة	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
حسرو وشيرين	المهلة الأخيرة
العصى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	الهيولى تصنع علماً جديداً
وضع حد	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
التليفزيون فى الحياة اليومية	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها
أنطوان تشيخوف	

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٥٣٧ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي (9 - 26 - 305 - 977 I. S. B. N.)

Where The Rivers Meet by Herbert Mason

« خسارات السياب وصداقة أنكيو »

يكتشف القارئ لهذا العمل صفحة مجهولة من حياة الشاعر العراقي المعروف بدر شاكر السياب، الشاعر الذي حطم أغلال القصيدة العربية وخرج بها إلى شكلها الحر ليكون حقاً الرائد الذي أخرج من غابة الشعر العربي قصيدته الحديثة.

لقد وجد الكاتب تماثلاً بينه وبين روح السياب الهائمة محاولاً الغوص بمجاهيل اللغة وسحر الأسطورة التي صاغها بدر من رموز بيئية حتى تحول «بويب» إلى نهر الحنين «وجيكور» إلى يوتوبيا سياسية.

في هذا العمل نلامس بقوة بعضاً من أفكار بدر، هذيانه اليقظ الذي أختبأ في نصه الشعري، خساراته، نساءه اللواتي أشفقن عليه أكثر مما أحبينه. وهنا خيال خصب أراد به الكاتب أن يصف ذاته عبر السياب الذات الجواله، المغامرة، المنكسرة، الساخطة، ورغبة هذا الغربي المسكون بالشرق بالغوص في أماكن محظورة من حياة شاعر التقت في جسده وروحه أحزان العالم.

لكن الخلود رغم مرارة ما مر به سعى إليه دون أن يطارده هو، كما فعل جلجامش من قبل، وظل ميسن - أنكيو صديق السياب، أخاه في الوحده والغربة، والخيال الذي ابتلعه الموت أمام طعنة المرض عند حافه الألم.